التعارض بين دلالات السياق القرآني

د. عبد السلام بن صالح الجار الله
قسم الدراسات القرآنية – كلية المعلمين
جامعة الملك سعود

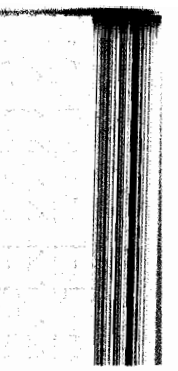

التعارض بين دلالات السياق القرآني

د. عبد السلام بن صالح الجار الله
قسم الدراسات القرآنية – كلية المعلمين
جامعة الملك سعود

ملخص البحث:

نصب الله تعالى دلائل عديدة تكشف المراد من كلامه، وتعين على فهم القرآن الكريم، كالاستعانة بالقرآن والسنة واللغة العربية، ونحوها من الدلائل والقرائن.

وقد يقع عند بعض المفسرين فضلاً عن غيرهم تعارض في تلك الدلائل والقرائن، فتحتاج إلى تأمل وإعادة نظر، والتوفيق بين ما يوهم التعارض، وكشف المشكل الواقع لدى بعض الناس بين آيتين، أو بين حديثين، أو بين آية وحديث ونحو ذلك، وقد تكلم العلماء في ذلك كثيراً، وصنفوا فيه مصنفات مفردة.

ومن الدلائل التي يقع فيها التعارض: التعارض بين دلالة السياق القرآني وغيرها، كالتعارض بين دلالة السياق القرآني والحديث النبوي، أو بين السياق وأسباب النزول، أو بين السياق والإجماع.

وأحياناً يقع التعارض بين دلالات السياق الواحد، فيفيد سياق في آية أحد المعاني، بينما تحتمل الآية نفسها معنى آخر بدلالة كلمة أو جملة أو ضمير في السياق نفسه. وهذه الأخيرة هي محل البحث. فوجود التعارض بين دلالة كلمة في السياق على معنى للآية، ودلالة كلمة أخرى في السياق نفسه على معنى آخر، يستدعي من المفسر والمجتهد دفع التعارض بين الدلالات، وإزالة الالتباس بوجه من وجوه دفع التعارض. وقد هدف البحث إلى بيان الموقف الصحيح الذي ينبغي للمفسر اتباعه عند وجود التعارض بين دلالات السياق القرآني على المعاني.

المقدمة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً. أما بعد:

فإن الله تعالى أنزل القرآن الكريم لهداية الناس إلى الصراط المستقيم، ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾[1]. ولا يمكن الوصول إلى هذه الهداية إلا بفهم القرآن فهماً سليماً، وقد نصب الله تعالى دلائل عديدة تكشف المراد من كلامه، وتعين على فهم القرآن الكريم، كالاستعانة بالقرآن والسنة واللغة العربية، ونحوها من الدلائل والقرائن.

وقد يقع عند بعض المفسرين فضلاً عن غيرهم تعارض في تلك الدلائل والقرائن، فتحتاج إلى تأمل وإعادة نظر، والتوفيق بين ما يوهم التعارض، وكشف المشكل الواقع لدى بعض الناس بين آيتين، أو بين حديثين، أو بين آية وحديث ونحو ذلك، وقد تكلم العلماء في ذلك كثيراً، وصنفوا فيه مصنفات مفردة.

ومن الدلائل التي يقع فيها التعارض: التعارض بين دلالة السياق القرآني وغيرها، كالتعارض بين دلالة السياق القرآني والحديث النبوي، أو بين السياق وأسباب النزول، أو بين السياق والإجماع.

وأحياناً يقع التعارض بين دلالات السياق الواحد، فيفيد سياق في آية أحد المعاني، بينما تحتمل الآية نفسها معنى آخر بدلالة كلمة أو جملة أو ضمير في السياق نفسه.

وهذه الأخيرة هي محل البحث، فوجود التعارض بين دلالة كلمة في السياق على معنى للآية، ودلالة كلمة أخرى في السياق نفسه على معنى آخر؛ يستدعي من المفسر والمجتهد دفع التعارض بين الدلالات، وإزالة الالتباس بوجه من وجوه دفع التعارض.

أسئلة البحث:

- ما موقف المفسر حين تتعارض دلالات السياق القرآني على المعاني ؟.
- وهل تتفاوت سياقات الآية في دلالتها على المعاني ؟.

---

(١) سورة الإسراء آية (٩).

- وأي المعاني أحق بالترجيح من الآخر ؟.

- وأي سياقات الآية أولى بالتقديم ؟.

هدف البحث

يهدف البحث إلى بيان الموقف الصحيح الذي ينبغي للمفسر اتباعه عند وجود التعارض بين دلالات السياق القرآني على المعاني.

ولم أجد فيما اطلعت عليه بحثاً مستقلاً في هذه المسألة سوى إشارات من بعض الباحثين(١).

خطة البحث:

يشتمل البحث على مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة وفهارس:

أما التمهيد ففي تعريف دلالة السياق القرآني.

المبحث الأول: طرق دفع التعارض بين الأدلة.

المبحث الثاني: تعارض السياق القرآني مع غيره.

المبحث الثالث: طرق دفع التعارض بين دلالات السياق القرآني، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: طريقة الجمع.

المطلب الثاني: طريقة الترجيح.

منهج البحث:

ما ذكرته من تعارض السياق القرآني مع غيره، وطرق دفع التعارض بين دلالات السياق القرآني مبني على استقرائي للتعارض المتعلق بالسياق القرآني، وما وقفت عليه في هذا الشأن، وقد عُنيت بذكر الأمثلة في المسائل التي هي من أصل البحث معتنياً بتحليلها وتحرير الأقوال في معاني الآية، وعزوها إلى مصادرها المعتبرة، ومناقشتها والترجيح بينها، مع الالتزام بالمنهج العلمي المتبع في كتابة البحوث من عزو الآيات وتخريج الأحاديث ونحو ذلك.

والله أسأل أن يوفقني وقارئ هذا البحث للعلم النافع؛ إنه نعم المولى ونعم النصير.

---

(١) انظر: دلالة السياق القرآني وأثرها في التفسير د. عبدالحكيم القاسم (ص٩٨)، والخطأ في تفسير القرآن بالقرآن، د. محسن المطيري (ص٢١٧).

التمهيد:

تعريف دلالة السياق القرآني

١ – الدَّلالة بفتح الدال – على الأفصح – مصدر دل يدل دلالة، وهي: ما يلزم من فهم شيء فهم شيء آخر، فالشيء الأول: هو الدال، والشيء الثاني: هو المدلول، والدلالة إما أن تكون لفظية أو غير لفظية، وكل منهما ثلاثة أنواع: عقلية وطبيعية ووضعية، وأشهرها الدلالة اللفظية الوضعية، وهي التي يُتحدث عنها في كتب الأصول والمنطق[١].

٢ – وأما السياق فيرجع في معناه اللغوي إلى التتابع والاتصال، وعلى هذا المعنى شواهد عربية:

مثل قولهم: " انساقت وتساوقت الإبل تساوقاً، إذا تتابعت، وكذلك تقاودت، فهي متقاودة ومتساوقة "[٢].

وقول العرب: وولدت ثلاثة بنين على ساق: متتابعة لا جارية بينهم[٣].

وسياق الكلام تتابعه وأسلوبه الذي يجري عليه[٤].

وقرينة السياق هي ما يؤخذ من لاحق الكلام الدال على خصوص المقصود أو سابقه[٥].

ودلالة السياق القرآني: فهم الآية بمراعاة ما قبلها، وما بعدها[٦].

---

(١) وهي ثلاثة أقسام: دلالة المطابقة، وهي دلالة اللفظ على تمام المعنى الموضوع له اللفظ، ودلالة التضمن، وهي دلالة اللفظ على جزء مسماه، ودلالة الالتزام، وهي دلالة اللفظ على لازم مسماه، ومن شواهدها في القرآن الكريم ما ذكره ابن كثير: في تفسيره (٤١/٧) عند قول الله تعالى: ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الصافات: ١٨٠ – ١٨٢] قال: "لما كان التسبيح يتضمن التنزيه والتبرئة من النقص بدلالة المطابقة، ويستلزم إثبات الكمال، كما أن الحمد يدل على إثبات صفات الكمال مطابقة، ويستلزم التنزيه من النقص قرن بينهما في هذا الموضع، وفي مواضع كثيرة من القرآن، ولهذا قال: ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾. وانظر في تعريف الدلالة وأقسامها: المستصفى للغزالي (٣٠/١). والإحكام للآمدي (١٥/١). والتعريفات للجرجاني (ص١٣٩– ١٤٠)، وشرح الكوكب المنير لابن النجار (١٢٥/١)، وآداب البحث والمناظرة للشنقيطي (١١/١)، وضوابط المعرفة للميداني (ص٢٦).

(٢) لسان العرب (٣/ ٢١٥٤).

(٣) أساس البلاغة (ص٣١٤)، والقاموس المحيط (ص١١٥٦).

(٤) المعجم الوسيط (ص٤٦٥).

(٥) حاشية العطار (٣٠/١).

(٦) انظر دلالة السياق القرآني وأثرها في التفسير د. القاسم (ص٩٣).

فدلالة السياق القرآني فهم الآية من خلال السياق، فالسياق هو الدال، والمعنى المفهوم هو المدلول.

ومن هذا التعريف يتبين أن دلالة السياق على المعنى تشمل ما قبل الآية المراد تفسيرها وما بعدها، وكلاهما داخل في السياق، ويسمى ما قبل الآية سباقاً، وما بعدها لحاقاً[1].

٣ – وأما التعارض في اللغة فهو على وزن تفاعل بمعنى التقابل، يقال: "عارض الشيء بالشيء معارضة قابله، وعارضت كتابي بكتابه، أي: قابلته"[2].

ويأتي بمعنى المنع، وفي القاموس المحيط[3]: " الاعتراض: المنع، والأصل فيه أن الطريق إذا اعترض فيه بناء أو غيره منع السابلة من سلوكه".

قال الزركشي –رحمه الله–: (ت ٧٩٤) في تعريف التعارض: " تفاعل من العُرض بضم العين، وهو الناحية والجهة، وكأن الكلام المتعارض يقف بعضه في عُرض بعض؛ أي: ناحيته وجهته، فيمنعه من النفوذ إلى حيث وُجِّه "[4].

والتعريف الاصطلاحي للتعارض مأخوذ من هذين المعنيين، فهناك تقابل بين أمرين يؤدي إلى منع كل منهما مقتضى الآخر.

ولذا يعرف التعارض عند بعض الأصوليين بأنه تقابل الدليلين بحيث لا يمكن الجمع بينهما[5].

والتعريف الأعم أن يقال: التقابل بين شيئين على وجه يمنع كل منهما مقتضى صاحبه[6].

فهذا التعريف أشمل من التعريف الذي قبله، ليشمل التعارض بين الأدلة التي هي من مباحث الفقهاء والأصوليين، كما يشمل التعارض بين المعاني والأقوال ونحوها.

---

(١) انظر: الكليات للكفوي (ص٥٠٨)، وقواعد الترجيح عند المفسرين (١/١٢٥).

(٢) لسان العرب (٤/٢٨٨٥).

(٣) (ص٨٣٣).

(٤) البحر المحيط (٦/١٠٩).

(٥) انظر في تعريفه: المستصفى (٢/٣٩٥)، وروضة الناظر (٣/١٠٢٩)، والبحر المحيط للزركشي (٦/١٠٩)، وإرشاد الفحول (ص٢٧٣).

(٦) الإبهاج للسبكي (٢/٢٩٩).

المبحث الأول:

طرق دفع التعارض بين الأدلة

من القضايا المسلمة عند العلماء كافة أنه لا يمكن وقوع تعارض حقيقي بين النصوص الشرعية، قال أبو بكر الخلال –رحمه الله– : (ت ٣١١): " لا يجوز أن يوجد في الشرع خبران متعارضان ليس مع أحدهما ترجيح يقدم به، فأحد المتعارضين باطل: إما لكذب الناقل أو خطئه بوجه ما من النقليات، أو خطأ الناظر في النظريات، أو لبطلان حكمه بالنسخ "[١].

و" كل من تحقق بأصول الشريعة؛ فأدلتها عنده لا تكاد تتعارض، كما أن كل من حقق مناط المسائل، فلا يكاد يقف في متشابه؛ لأن الشريعة لا تعارض فيها البتة، فالمتحقق بها متحقق بما في نفس الأمر؛ فيلزم أن لا يكون عنده تعارض، ولذلك لا تجد البتة دليلين أجمع المسلمون على تعارضهما بحيث وجب عليهم الوقوف، لكن لما كان أفراد المجتهدين غير معصومين من الخطأ، أمكن التعارض بين الأدلة عندهم "[٢].

فالتعارض بين الأدلة الشرعية في نفس الأمر مستحيل، وأما وجود التعارض من جهة نظر المجتهد إذا لم يتمكن من الجمع فممكن من غير خلاف[٣].

وأول طرق دفع التعارض وأولاها عند العلماء الجمع بين النصوص الشرعية المتعارضة، فمتى أمكن الجمع تعين المصير إليه، ولم يجز المصير إلى الترجيح، لأن الجمع ينتفي به التعارض[٤].

وقد اعتنى المفسرون قديماً وحديثاً بمسلك الجمع بين آيات الكتاب العزيز، وتختلف طريقتهم عن طريقة الفقهاء والأصوليين الذين اعتنوا بالآيات المتعلقة بالأحكام، أما المفسرون فقد اعتنوا بهذا الضرب من الآيات، واعتنوا بالآيات المتعلقة بالأخبار وغيرها، ولهم في دفع التعارض بين نصوص الكتاب العزيز مقاصد، كإظهار

---

(١) شرح الكوكب المنير لابن النجار (٤/ ٦١٧).

(٢) الموافقات (٥/ ٣٤١-٣٤٢).

(٣) المصدر السابق، وانظر: إرشاد الفحول (ص٢٧٥).

(٤) إرشاد الفحول (ص٢٧٦).

الإعجاز والبلاغة القرآنية، واستنباط اللطائف التفسيرية والبلاغية، والرد على من يحاول الطعن بالقرآن بإظهار تعارض آياته وتناقضها.

ومن أمثلته عن السلف ما جاء عن نافع بن الأزرق (ت ٦٥) أنه سأل ابن عباس رضي الله عنهما، فقال: " يا بن عباس قولَ الله تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [1]، وقوله: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [2]؟. فقال له ابن عباس: إني أحسبك قمت من عند أصحابك فقلت: ألقي على ابن عباس متشابه القرآن، فإذا رجعت إليهم فأخبرهم أن الله جامع الناس يوم القيامة في بقيع واحد، فيقول المشركون: إن الله لا يقبل من أحد شيئاً إلا ممن وحده، فيقولون: تعالوا نقل، فيسألهم فيقولون: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، قال: فيختم الله على أفواههم ويستنطق جوارحهم، فتشهد عليهم جوارحهم أنهم كانوا مشركين، فعند ذلك تمنوا لو أن الأرض سويت بهم، ولا يكتمون الله حديثاً "[3].

فقد أوهم ابن الأزرق التعارض بين الآيتين، حيث نفت الأولى أن يكتم الكفار الله حديثاً يوم القيامة، وفي الثانية كتموا إشراكهم بالله تعالى بقولهم: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، فبين له ابن عباس أنه بعد نفيهم إشراكهم بالله تشهد عليهم جوارحهم بأنهم كانوا مشركين، وعندها يتمنون أنهم لم يكتموا الله حديثاً، فهذا التمني وقع بعد نفيهم إشراكهم بالله تعالى.

ولأهمية الجمع بين الآيات التي توهم التعارض أفرد لها العلماء كتباً عدة [4].

ومسلك الجمع بين المتعارضات مسلك عام يدخل في وجوه كثيرة من التعارض، وبه يندفع التعارض بين آيات الكتاب العزيز، والتعارض بين الأحاديث، والتعارض بين آية

---

(١) سورة النساء آية (٤٢).

(٢) سورة الأنعام من الآية (٢٣).

(٣) جامع البيان (٧/٤٣-٤٤)، وأخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٣٠٦-٣٠٧) مختصراً.

(٤) منها على سبيل المثال:

البرهان في توجيه متشابه القرآن لتاج القراء محمود بن حمزة الكرماني.

ودرة التنزيل وغرة التأويل لأبي عبد الله محمد الأصبهاني (الخطيب الإسكافي).

وملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل، لابن الزبير الغرناطي.

ودفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، لمحمد الأمين الشنقيطي.

وحديث، كما أنه مسلك مهم عند تعارض الأقوال، وبخاصة أقوال العلماء في تفسير القرآن الكريم، ولذا تتأكد أهمية التفصيل عند ذكر خلافات العلماء والترجيح بينها.

ومن أوجه دفع التعارض بين النصوص الشرعية القول بنسخ النص المتأخر للنص المتقدم على ضوابط وشروط مذكورة في مظانها[1].

ومن الأوجه: الترجيح بين الأدلة، وللعلماء في الترجيح مسالك متعددة، وقد يكون بعضها خاصاً، كالترجيح بين خبرين متعارضين؛ لم يمكن الجمع بينهما، وذلك بتقديم المتواتر على غيره، ثم الآحاد وأعلاه " الصحيح، فيقدم على غيره، ثم الحسن، فيقدم على غيره، ثم الضعيف، وهو أصناف كثيرة، وتتفاوت مراتب كل من الصحيح والحسن، والضعيف، فيقدم من كل من ذلك ما كان أقوى "، على ما هو مفصل في كتب أصول الفقه[2].

ويتفرع عن ذلك الترجيح بين الرواة، كترجيح أحد الحديثين بكثرة رواته، أو أن أحد الراويين أزيد ثقة، وفطنة، وورعاً، وعلماً، وضبطاً ونحو ذلك، وهذه المرجحات متعلقة بالسند.

ومن مسالك الترجيح عند العلماء الترجيحات المتعلقة بالمتون، كالترجيح بين دلالات النصوص الشرعية، وهذا أقرب المسالك إلى بحثنا، ووجوه الترجيح بين الدلالات كثيرة، نذكر طرفاً منها على سبيل الإجمال، فمن ذلك:

تقديم دلالة النص على دلالة الظاهر، ودلالة الإيماء[3].

---

(١) انظر: المستصفى (٢/٣٩٣)، وشرح الكوكب المنير (٤/٦٠٧).

(٢) انظر على سبيل المثال: شرح الكوكب المنير لابن النجار (٤/٦٠٤)، وما بين القوسين منه، وإرشاد الفحول (ص٢٧٦).

(٣) انظر: البحر المحيط للزركشي (٦/٢٢٩)، والنص هو ما يفيد بنفسه من غير احتمال كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وقيل: هو الصريح في معناه، والظاهر هو ما يسبق إلى الفهم منه عند الإطلاق معنى مع تجويز غيره، أو هو ما احتمل معنيين هو في أحدهما أظهر، وحكمه أن يصار إلى معناه الظاهر، ولا يجوز تركه إلا بتأويل، ودلالة الإيماء لا تكون إلا على علة الحكم خاصة، بأن يذكر وصف مقترن بحكم في نص من نصوص الشرع على وجه لولم يكن ذلك الوصف علة لذلك الحكم لكان الكلام معيباً. انظر: المستصفى (١/٣٨٤)، وروضة الناظر (٢/٥٦٠-٥٦٤)، ومذكرة في أصول الفقه للشنقيطي (ص٢٣٦)

وتقديم ما دل بمفهوم الموافقة على ما دل بمفهوم المخالفة[1].

وتقديم دلالة الاقتضاء على دلالة الإشارة؛ لأنها أولى لترجحها بقصد المتكلم لها بخلاف دلالة الإشارة[2].

وتقديم دلالة المطابقة على دلالة الالتزام لأنها أضبط[3].

وإذا كان هناك دليلان دل أحدهما على مطلوبه من وجهين أو أكثر، والآخر لا يدل إلا من جهة واحدة، فالذي كثرت جهة دلالته أولى؛ لأنه أغلب على الظن[4].

وثمة أمور ينبغي للمرجح مراعاتها عند الترجيح بين الأدلة، ومنها:

١ – أن الترجيح فعل المرجح الناظر في الدليل.

٢ – أن المرجحات كثيرة، وقد ذكرنا جملة منها.

٣ – أن بعضها أقوى من بعض، واتضح مما تقدم أن الدلالات متفاوتة في قوتها، فبعضها أقوى من بعض، ولا بد للمرجح من مراعاة ذلك.

٤ – أن الترجيح غلبة الظن عند المجتهد، فيقدم ما كان أقوى في الدلالة عنده.

قال ابن النجار – رحمه الله –: (ت ٩٧٢): "الترجيح: فعل المرجح الناظر في الدليل، وهو تقديم إحدى الأمارتين الصالحتين للإفضاء إلى معرفة الحكم، لاختصاص تلك الأمارة بقوة في الدلالة، كما لو تعارض الكتاب والإجماع في حكم، فكل منهما طريق يصلح لأن يعرف به الحكم، لكن الإجماع اختص بقوة على الكتاب من حيث الدلالة"[5].

---

(١) انظر: الإحكام للآمدي (٤/٢٥٣)، وشرح الكوكب المنير (٤/٦٧١)، وإرشاد الفحول (ص ٢٧٩)، ومذكرة في أصول الفقه (ص٣٢٦).

(٢) الإحكام للآمدي (٤/٢٥٣)، وإرشاد الفحول (ص٢٧٩)، ودلالة الاقتضاء لا تكون إلا على محذوف دل المقام عليه، وتقديره لا بد منه، لأن الكلام دونه لا يستقيم لتوقف الصدق أو الصحة عليه، وأما دلالة الإشارة فهي دلالة اللفظ على معنى ليس مقصوداً باللفظ في الأصل، ولكنه لازم للمقصود، فكأنه مقصود بالتبع لا بالأصل، كدلالة قوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ الآية [سورة البقرة ١٨٧] على صحة صوم من أصبح جنباً. انظر: الإحكام للآمدي (٣/٦٤-٦٥)، ومذكرة في أصول الفقه للشنقيطي (ص٢٣٥).

(٣) الإحكام للآمدي (٤/٢٥٣).

(٤) الإحكام للآمدي (٤/٢٥٢)، وإرشاد الفحول (ص٢٧٨).

(٥) شرح الكوكب المنير (٤/٦١٨).

وإنما اعتبر ابن النجار الإجماع أقوى في الدلالة على الحكم من الكتاب ؛ لأنه غير قابل للتأويل ، ولعدم تطرق احتمال النسخ إليه ، لأنه إنما ينعقد بعد انقطاع الوحي ، فهو أقوى عنده من هذه الحيثية[1].

والمراد هنا بيان تفاوت الدلالات في قوتها ، وكلامه يتعلق بالترجيح بين الأدلة في الأحكام ، لكن يمكن تطبيقه على دلالات السياق المختلفة ، فنظر المجتهد إلى دلالات السياق قد يفضي به إلى ترجيح إحدى الدلالات على غيرها لقرائن ومرجحات تقوده إلى ذلك.

وقال الزركشي –رحمه الله–: " اعلم أن التراجيح كثيرة ، ومناطها ما كان إفادته للظن أكثر ، فهو الأرجح ، وقد تتعارض هذه المرجحات ، كما في كثرة الرواة وقوة العدالة وغيره ، فيعتمد المجتهد في ذلك ما غلب على ظنه "[2].

وقال الشنقيطي –رحمه الله– : (ت ١٣٩٣): " والمرجحات يرجح بعضها على بعض ، وضابط ذلك عند الأصوليين هو قوة الظن "[3].

وهذه الأمور ينبغي أن تكون حاضرة عند من ينظر في أقوال المفسرين ، واستدلالهم على المعاني التي يذكرونها ليستفيد منها في الترجيح بين الأدلة والأقوال ، فيرجح ما تسانده الأدلة وتقويه.

إن المتأمل في ترجيحات المفسرين بين الأقوال بدلالة السياق وغيرها يدرك الحقيقة التي تقدمت وهي تفاوت اجتهاداتهم ، فيرى بعضهم أن السياق أولى بالتقديم ، ويرى آخرون أن غيره أولى.

ومن أمثلته: أن ابن جرير رحمه الله – : (ت ٣١٠) ذكر الأقوال في تفسير قول الله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[4] ، وأن منهم من قال: إنه موسى بن عمران –

---

(١) انظر: المستصفى (١٠٢/٢) ، والإحكام للآمدي (٣٢٧/٢) ، وإرشاد الفحول (ص ٧٨ ، ١٦٠).

(٢) البحر المحيط في أصول الفقه (١٥٩/٦) ، وانظر: شرح الكوكب المنير (٦٢٥/٤) ، وإرشاد الفحول (ص٢٨٤).

(٣) أضواء البيان (٤٠٢/٥) ، وانظر قواعد الترجيح عند المفسرين (٥٧/١).

(٤) سورة الأحقاف آية (١٠).

عليه السلام- ، ومنهم من قال: هو عبد الله بن سلام رضي الله عنه ثم يرجح فيقول: " والصواب من القول في ذلك عندنا أن الذي قاله مسروق (ت ٦٢) [وهو القول الأول] في تأويل ذلك أشبه بظاهر التنزيل ، لأن قوله: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ ﴾ في سياق توبيخ الله - تعالى ذكره - مشركي قريش ، واحتجاجاً عليهم لنبيه ﷺ ، وهذه الآية نظيرة سائر الآيات قبلها ، ولم يجر لأهل الكتاب ولا لليهود قبل ذلك ذكر ، فتوجه هذه الآية إلى أنها فيهم نزلت ، ولا دل على انصراف الكلام عن قصص الذين تقدم الخبر عنهم معنى ، غير أن الأخبار قد وردت عن جماعة من أصحاب رسول الله ج بأن ذلك عني به عبدالله بن سلام ، وعليه أكثر أهل التأويل ، وهم كانوا أعلم بمعاني القرآن ، والسبب الذي فيه نزل ، وما أريد به ، فتأويل الكلام إذ كان ذلك كذلك: وشهد عبد الله بن سلام ، وهو الشاهد من بني إسرائيل على مثله، يعني على مثل القرآن ، وهو التوراة ، وذلك شهادته أن محمداً مكتوب في التوراة أنه نبي ، تجده اليهود مكتوباً عندهم في التوراة ، كما هو مكتوب في القرآن أنه نبي "(١).

فقرينة السياق التي نص عليها ابن جرير -رحمه الله- : لم تقو على معارضة ما روي عن جماعة من الصحابة -رضي الله عنهم- ، وما عليه أكثر أهل التأويل ، من أن الشاهد عبد الله بن سلام ، ولذا عدل عنها إلى القول الثاني ، بينما يرى غيره أن القول بأنه عبد الله بن سلام ضعيف ، لأن السورة مكية وعبد الله إنما أسلم بالمدينة ، وكأن هذه القرينة التاريخية تضعف هذا القول ، يقول ابن تيمية -رحمه الله- : (ت ٧٢٨): " وقوله: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ ﴾ ، ليس المقصود شاهداً واحداً معيناً ، بل ولا يحتمل كونه واحداً ، وقول من قال: إنه عبد الله بن سلام ليس بشيء ، فإن هذه الآية نزلت بمكة ، قبل أن يعرف ابن سلام ، ولكن المقصود جنس الشاهد ، كما تقول: قام الدليل "(٢).

وهذا هو الأظهر ، فإن الشاهد في الآية مبهماً منكَّراً ، والمحمل الصحيح لما ورد عن الصحابة ﷺ في أن الشاهد عبد الله بن سلام أن مرادهم أن الآية نزلت فيه ، وقد نص على ذلك سعد بن أبي وقاص-رضي الله عنه- فإنه قال: ما سمعت النبي ﷺ يقول لأحد يمشي

---

(١) جامع البيان (٢١/١٣١).

(٢) النبوات (١/١٧٧).

على الأرض: إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام، قال: وفيه نزلت هذه الآية ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ الآية[1].

وهذه العبارة ترد عن السلف كثيراً، ويريدون بها أنه داخل في حكمها ودلالتها، قال ابن تيمية: "وقولهم: نزلت هذه الآية في كذا؛ يراد به تارة أنه سبب النزول، ويراد به تارة أن ذلك داخل في الآية، وإن لم يكن السبب، كما تقول: عنى بهذه الآية كذا"[2].

وقريب من هذه القرينة التاريخية ما ذكره الشنقيطي -رحمه الله- : عند تفسير قول الله تعالى: ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾. فإنه قال: "قال بعض العلماء: وقرينة السياق تدل على أن القرح الذي أصاب المشركين ما وقع بهم يوم أحد؛ لأن الكلام في وقعة أحد، ولكن التثنية في قوله: ﴿مِّثۡلَيۡهَا﴾[3] تدل على أن القرح الذي أصاب المشركين ما وقع بهم يوم بدر؛ لأنه لم ينقل أحد أن الكفار يوم أحد أصيبوا بمثلي ما أصيب به المسلمون، ولا حجة في قوله: ﴿تَحُسُّونَهُم﴾[4]؛ لأن ذلك الحس والاستئصال في خصوص الذي قتلوا من المشركين، وهم أقل ممن قتل من المسلمين يوم أحد، كما هو معلوم"[5].

فقرينة السياق لم تقو عنده على معارضة القرينة التاريخية، لأنه لم ينقل تاريخياً أن الكفار أصيبوا يوم أحد بمثلي ما أصيب به المسلمون، والآية نصت على إصابة الكفار بمثل ما أصيب به المسلمون يوم أحد في قوله: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ﴾، يعني يوم أحد ﴿قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾، ويعني به يوم بدر، وهو القرح الذي أصاب الكفار في يوم بدر، يقول الشنقيطي: "وقد أشار إلى القرحين معاً بقوله: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾، فالمراد بمصيبة المسلمين القرح الذي مسهم يوم أحد، والمراد بمصيبة الكفار

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب مناقب عبد الله بن سلام (٤/ ٢٢٩).

(٢) مقدمة في التفسير ضمن مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٣٩).

(٣) سورة آل عمران من الآية (١٦٥).

(٤) سورة آل عمران (١٥٢).

(٥) أضواء البيان (١/ ٣٤٠).

بمثليها قبل القرح الذي مسهم يوم بدر ؛ لأن المسلمين يوم أحد قتل منهم سبعون، والكفار يوم بدر قتل منهم سبعون، وأسر سبعون "[1].

وقد تكون القرينة التاريخية غير صريحة في الدلالة، فلا تقوى على معارضة قرينة السياق، ومن أمثلته: ما ذكره الحسن البصري: (ت ١١٠) عند قول الله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[2]، حيث قال: كان الرجلان اللذان في القرآن، اللذان قال الله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ ﴾، من بني إسرائيل، ولم يكونا ابني آدم لصلبه، وإنما كان القُربان في بني إسرائيل، وكان آدم أول من مات[3].

فاستدل الحسن على أن ابني آدم من بني إسرائيل ولم يكونا ابني آدم لصلبه، بأن القربان كان في بني إسرائيل، وأن آدم أول من مات، فهو قبل قتل ابن آدم، وهذه قرينة ضعيفة، وفي سياق الآيات ما يردها، فإن الله تعالى قال: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ﴾[4]، وهذا يدل على أن الحادثة حدثت قبل أن يعلم الناس دفن الموتى، " ولا يخفى على أحد أنه ليس في بني إسرائيل رجل يجهل الدفن حتى يدله عليه الغراب، فقصة الاقتداء بالغراب في الدفن، ومعرفته منه تدل على أن الواقعة وقعت في أول الأمر قبل أن يتمرن الناس على دفن الموتى، كما هو واضح "[5].

وأما قول الحسن بأن القرابين كانت في بني إسرائيل، فلا يلزم منه أن لا تكون معروفة قبل ذلك[6]، وقول الحسن: إن آدم أول من مات يحتاج إلى دليل.

ومن هذا يتضح أن القرائن تتفاوت، بل القرينة الواحدة تتفاوت قوة وضعفاً، كما رأيت في هذه القرينة، وعلى المفسر الاجتهاد في الأخذ بأقواها وأرجحها.

---

(١) أضواء البيان (١/٣٣٨).

(٢) سورة المائدة آية (٢٧).

(٣) جامع البيان (٨/٣٢٤).

(٤) سورة المائدة من الآية (٣١).

(٥) أضواء البيان (٢/٧١).

(٦) قواعد الترجيح عند المفسرين (١/٣٠٩).

المبحث الثاني:

تعارض السياق القرآني مع غيره

إن قوة السياق القرآني تتجلى بوضوح من أمرين: دلالته الصريحة على المعنى، والثاني ضعف الأدلة الأخرى عن دفعه. فالكلمة القرآنية من حيث مدلولها اللغوي قد تأتي لأكثر من معنى، واختيار المعنى المناسب للآية يحدده ويحكم به سياق الآيات، ويجب على المفسر أن ينطلق في تفسير الكلمة من ذلك، ومن القواعد التي يجب أن يراعيها في ذلك: أنه ليس كل ما صح لغة صح تفسيراً[1].

يقول الزركشي -رحمه الله-: "ليكن محط نظر المفسر مراعاة نظم الكلام الذي سيق له، وإن خالف أصل الوضع اللغوي"[2].

ويمتدحُ الراغبَ الأصفهاني في كتابه مفردات القرآن، فيقول عما لم يرد فيه نقل: "وطريق التوصل إلى فهمه النظر إلى مفردات الألفاظ من لغة العرب ومدلولاتها واستعمالها بحسب السياق، وهذا يعتني به الراغب كثيراً في كتاب المفردات، فيذكر قيداً زائداً على أهل اللغة في تفسير مدلول اللفظ؛ لأنه اقتنصه من السياق"[3].

والناظر في أقوال المفسرين واختلافاتهم يجد كل فريق ينتصر لقوله ويؤيده بالأدلة، فقد يستدل فريق على صحة تفسيرهم بالسياق، ويقابلهم آخرون بأدلة من القرآن الكريم، أو السنة، أو أسباب النزول ونحوها[4]، وحينئذٍ ينبغي للمفسر والمجتهد الناظر في تلك الأقوال وأدلتها المقارنة بينها وأيها أقوى وأرجح، ومن ثم تقديمه والترجيح به.

---

(١) قواعد الترجيح عند المفسرين (٢/٣٦٣).

(٢) البرهان (١/٤٢٧).

(٣) البرهان (٢/٣١٣)، وانظر (١/٣٩٤) من الكتاب نفسه، ويقول الراغب في المفردات (ص٤٠٢) في مادة سخر: "والسُّخرية والسِّخرية: لفعل الساخر، وقوله تعالى: ﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ [المؤمنون: ١١٠]، ﴿سُخْرِيًّا﴾. فقد حمل على الوجهين: على التسخير، وعلى السُّخرية قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ [ص:٦٣]، ويدل على الوجه الثاني قوله بعد: ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٠]".

(٤) انظر في ذلك: السياق القرآني وأثره في الكشف عن المعاني د. زيد العيص (ص٨٦٠)، والسياق القرآني وأثره في الترجيح الدلالي لعبد الفتاح محمود (ص١٤٠).

وسأكتفي من هذه الحالات بمثال على التعارض بين السياق والحديث في الدلالة على المعنى:

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾[1].

اختلف العلماء في الزلزلة والأهوال المذكورة هل تقع قبل قيام الناس من قبورهم ووقوفهم في عرصات القيامة، أو تقع بعد قيام الناس من قبورهم ؟.

فذهب جمع من العلماء إلى أن الزلزلة والأهوال تقع قبل يوم القيامة، وهذا قول علقمة (ت ٦٢)، والشعبي (ت ١٠٥)، وإبراهيم النخعي (ت ٩٦) وغيرهم، ومال إليه ابن عطية (ت ٥٤١)[2].

واستدل هؤلاء بسياق الآيات، فإن من أهوال الزلزلة المذكورة في السورة أن تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، قالوا: وهذا إنما يكون في الدنيا، أما بعد قيام الناس من قبورهم فلا حمل ولا إرضاع[3].

وقال آخرون: إن الزلزلة والأهوال المذكورة تقع في العرصات بعد قيام الناس من قبورهم، وهو قول الحسن والسدي (ت ١٢٧)، ورجحه الطبري، والشنقيطي[4].

واحتج هؤلاء بما جاء عن النبي ﷺ أنه قال: " يقول الله عز وجل يوم القيامة: يا آدم، فيقول: لبيك ربنا وسعديك، فينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار، قال: يا رب، وما بعث النار؟، قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، فحينئذ تضع الحامل حملها، ويشيب الوليد، ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ

---

(١) سورة الحج الآيتان (١-٢).

(٢) انظر: جامع البيان (١٦/٤٤٦)، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٥/٣٨٤).

(٣) انظر: المحرر الوجيز (٦/٢١٢)، ومعالم التنزيل (٥/٣٦٤).

(٤) انظر: جامع البيان (١٦/٤٤٩)، ومعالم التنزيل (٥/٣٦٤)، وأضواء البيان (٥/٩، ١٢).

ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾، فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم، قال النبي ﷺ: "من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعين، ومنكم واحد"[١].

قال الشنقيطي –رحمه الله– : معلقاً على الحديث: "وفيه تصريح النبي ج بأن الوقت الذي تضع فيه الحامل حملها، وترى الناس سكارى، وما هم بسكارى: هو يوم القيامة لا آخر الدنيا"[٢].

ومما احتجوا به حديث عمران بن حصين أن النبي ﷺ قال: لما نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾، قال: أنزلت عليه هذه، وهو في سفر، فقال: أتدرون أي يوم ذلك؟، فقالوا: الله ورسوله أعلم، قال: "ذلك يوم يقول الله لآدم: ابعث بعث النار، قال: يا رب، وما بعث النار؟، قال: تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة"[٣].

والقول الأول الذي استدل بالسياق له وجه، لذا لم يخف ابن جرير: إعجابه به وذكر أنه قولٌ لولا مجيء الصحاح من الأخبار عن رسول الله ﷺ بخلافه[٤].

وكذلك ذكر الشنقيطي –رحمه الله–: أن هذا القول من حيث المعنى له وجه من النظر، ولكن لم يثبت ما يؤيده من النقل، بل الثابت من النقل يؤيد خلافه، وهو القول الآخر[٥].

والراجح – والله أعلم – القول بوقوع ما ذكره الله بعد قيام الساعة وبعث الناس من قبورهم، ويمكن أن يجاب عن القول الآخر بما يأتي:

١– عدم صراحة دلالة سياق الآيات على أن الزلزلة والأهوال تقع قبل قيام الناس من قبورهم، قال الرازي –رحمه الله– : (ت ٦٠٦): "واعلم أنه ليس في اللفظ دلالة على شيء

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب التفسير، باب سورة الحج (٥/ ٢٤١)، ومسلم في كتاب الإيمان (٢٠١/١) برقم (٣٧٩) من حديث أبي سعيد الخدري –رحمه الله–.

(٢) أضواء البيان (٥/ ١٣).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه في أبواب التفسير. باب ومن سورة الحج (٨/ ٣١٣). والإمام أحمد في المسند (٤/ ٤٣٥). قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وقد ساق ابن جرير في جامع البيان (١٦/ ٤٤٩)، وابن كثير في تفسيره (٥/ ٣٨٥) أحاديث أخرى في هذا المعنى.

(٤) جامع البيان (١٦/ ٤٤٩).

(٥) أضواء البيان (٥/ ٩).

من هذه الأقسام[1]، لأن هذه الإضافة تصح وإن كانت الزلزلة قبلها، وتكون من أماراتها وأشراطها، وتصح إذا كانت فيها ومعها، كقولنا آيات الساعة وأمارات الساعة "[2].

٢ – يمكن أن يقابل القول بأن الحمل والإرضاع لا يكون إلا في الدنيا، بأن من ماتت حاملاً تبعث حاملاً، فتضع حملها من شدة الهول والفزع، ومن ماتت مرضعة بعثت كذلك، وكلا الأمرين يحتاج إلى دليل[3].

٣ – أن الإخبار بهذه الأهوال كناية عن شدة الهول، وهو مثل قول الله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾[4]، وهذا كالإخبار بالزلزلة، فإن معناه " شدة الخوف والهول والفزع ؛ لأن ذلك يسمى زلزالاً، بدليل قوله تعالى فيما وقع بالمسلمين يوم الأحزاب من الخوف: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾[5]، وهو زلزال فزع وخوف، لا زلزال حركة الأرض"[6].

إن هذه الاحتمالات والأجوبة تقلل من قوة دلالة السياق ورجحانه، وإذا قارنها بصحة الحديث وقوة دلالته في أن الأهوال المذكورة تقع في يوم القيامة بعد البعث لم يبق إلا القول بتقديمه وترجيحه على دلالة السياق، والله أعلم.

* * *

(١) وهي أن الأهوال تكون في الدنيا، أو تكون مع قيام الساعة، أو تكون في أول يوم من أيام الآخرة.
(٢) التفسير الكبير (٨ / ٢٠٠).
(٣) أضواء البيان (٥ / ١٥).
(٤) سورة المزمل آية (١٧).
(٥) سورة الأحزاب الآيتان (١٠–١١).
(٦) أضواء البيان (٥ / ١٥).

المبحث الثالث:

طرق دفع التعارض بين دلالات السياق القرآني

قد تحتمل الآية وجوهاً من المعاني، ولا يكون في سياق الآية الدلالة على أحدها أو ترجيحه على غيره، بمعنى أن سياق الآيات خال من الدلالة على أحد المعاني بخصوصه أو منعه ورده، وحينئذٍ لا مانع من حمل الآية على جميع المعاني المحتملة.

ومن الأمثلة على ذلك: قول الله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾[1].

فالواو في قوله: ﴿ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ﴾ يحتمل أن تكون واو قسم، فيكون قسم من السحرة بالله الذي فطرهم أنهم لن يؤثروا فرعون على ما جاءهم من البينات، ويحتمل أن تكون واو عطف، والمعنى لن يؤثروه على الذي جاءهم من البينات، ولن يؤثروه على الذي فطرهم[2].

ومن أمثلته قول الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾[3]، فإن فيها معنيين كلاهما حق:

الأول: وهو الإله، أي: المعبود بحق في السموات والأرض، وهذا كقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾[4].

والثاني: أن يكون قوله: ﴿ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ﴾ متعلق بقوله: ﴿ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾، والمعنى: وهو يعلم سركم وجهركم في السموات والأرض، ويدل له قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[5].

وقد يختلف المفسرون في الآية، ويحتج كل فريق بقرينة من سياق الآية على صحة المعنى الذي ذهب إليه، وللمفسر حينئذٍ مع هذا الاختلاف عدة طرق، وهي لا تخرج عن الطرق التي يذكرها العلماء في دفع التعارض، ومنها:

---

(١) سورة طه آية (٧٢).

(٢) جامع البيان (١١٦/١٦).

(٣) سورة الأنعام آية (٣).

(٤) سورة الزخرف من الآية (٨٤).

(٥) سورة الفرقان من الآية (٦)، وانظر أضواء البيان (٢٩/١-٣٠).

المطلب الأول: طريقة الجمع

والمراد بها الجمع بين مدلولات السياق القرآني، فإذا كانت الآية تحتمل المعاني كلها وتصدق عليها جميعاً، فلا مانع من الحمل عليها، وبذلك ينتفي التعارض.

وهذه الطريقة أول الطرق التي ينبغي سلوكها، وهي أولاها وأقواها في دفع التعارض، وأكثرها دوراناً عند المفسرين، وينبغي أن يكون نظر المفسر أول الأمر إلى التوفيق بين الأقوال، والجمع بينها وتوجيهها، وبيان احتمال الآية لها ما أمكن ذلك.

والخلاف بين المفسرين حينئذٍ من اختلاف التنوع لا التضاد، وأكثر الخلاف بين السلف يرجع إليه، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: "الخلاف بين السلف في التفسير قليل، وخلافهم في الأحكام أكثر من خلافهم في التفسير، وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع، لا اختلاف تضاد"[1].

ولهذا النوع من الاختلاف صور عديدة[2]، وأمثلته في اختلافات المفسرين أكثر من أن تحصر، ومن أمثلته في قضية البحث:

١- ما جاء عن يعقوب بن عبد الرحمن الزهري (ت ١٨١) قال: سألت زيد بن أسلم (ت ١٣٦) عن قول الله: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ الآية إلى قوله: ﴿سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾[3]، فقلت له: من يراد بهذا؟، فقال: رسول الله ﷺ، فقلت له: رسول الله؟!، فقال: ما تنكر؟!، قال الله عز وجل: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾[4]، قال: ثم سألت صالح بن كيسان (ت ١٤٠) عنها، فقال لي: هل سألت عنها أحداً؟، فقلت: نعم، قد سألت عنها زيد بن أسلم، فقال: ما قال لك؟، فقلت: بل تخبرني ما تقول، فقال: لأخبرنك برأي الذي عليه رأيي، فأخبرني ما قال لك؟، قلت: قال: يراد بهذا رسول الله ﷺ، فقال: وما علم زيد!، والله ما سن عالية، ولا لسان فصيح، ولا معرفة بكلام العرب، إنما يراد بهذا الكافر، ثم قال: **اقرأ ما بعدها يدلك على ذلك**، قال: ثم سألت حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس (ت ١٤١)، فقال لي: مثل ما قال لي صالح: هل سألت أحداً؟ فأخبرني به،

---

(١) مقدمة في التفسير (١٣/٣٣٣).

(٢) انظرها في المرجع السابق.

(٣) سورة ق الآيات (١٩-٢١).

(٤) سورة الضحى الآيتان (٦، ٧).

قلت: إني قد سألت زيد بن أسلم، وصالح بن كيسان، فقال لي: ما قالا لك ؟، قلت: بل تخبرني بقولك، قال: لأخبرنك بقولي، فأخبرته بالذي قالا لي، قال: أخالفهما جميعاً، يريد بها البر والفاجر، قال الله: ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾[1]. قال: فانكشف الغطاء عن البر والفاجر، فرأى كلٌّ ما يصير إليه"[2].

من النص السابق يتبين أن للسلف في المخاطب بقوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾ ثلاثة أقوال:

الأول: أن المخاطب به النبي ﷺ، وهذا قول زيد بن أسلم.

والقول الثاني: أن المخاطب به الكافر، وهو قول صالح بن كيسان، وقال بقوله: ابن عباس، ومجاهد (ت١٠٣)، والضحاك (ت١٠٦)[3].

القول الثالث: أن المراد به المؤمن والكافر، وهو قول حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس، واختاره ابن جرير[4].

وقد استدل ابن كيسان وحسين بن عبد الله لقولهما بسياق الآيات، فابن كيسان فسر الآيات بأنه يراد بها الكافر، واستدل باللحاق، وقال لسائله: اقرأ ما بعدها يدلك على ذلك، والذي بعد قول الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾، هو قوله: ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴾[5]. وهي قطعاً تتحدث عن الإنسان الكافر.

والمخاطب بالآية عند حسين بن عبد الله هو المؤمن والكافر، وقد استدل بالسباق، وهو قوله: ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾، وألفاظها عامة.

---

(١) سورة ق الآيات (١٩-٢٣).

(٢) جامع البيان (١١/ ٤١٩-٤٢٠).

(٣) انظر: جامع البيان (٢١/ ٤٣٤)، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٧/ ٣٧٩).

(٤) جامع البيان (٢١/ ٤٣٣).

(٥) سورة ق الآيات (٢٣-٢٦).

والراجح أن الآية عامة، والمراد بها الإنسان من حيث هو، فتشمل المؤمن والكافر، والسباق واللحاق يدل لذلك:

أما السياق فقد جاء بلفظ العموم، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾[1] يراد عموم الإنسان، قال ابن جرير مرجحاً هذا القول: "والإنسان في هذا الموضع بمعنى: الناس كلهم، غير مخصوص منهم بعض دون بعض"[2]، ومن العموم في السباق قول الله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾، والآية صريحة في أن كل نفس تأتي ومعها سائق وشهيد، فإذا جاءت قيل لصاحبها: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾.

وأما اللحاق فقد تكلمت الآيات عن المؤمن والكافر، فبدأت بالكافر في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾، وثنت بالمؤمن في قوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾[3].

وأما قول زيد بن أسلم: إن المراد بالآية محمد ﷺ، وعلى هذا يكون الخطاب في الدنيا، ومعنى الآية: لقد كنت يا محمد في غفلة من معرفة هذا القصص والغيب، حتى أرسلناك وأنعمنا عليك وعلمناك[4]، وهذا القول ضعيف، قال ابن جزي -رحمه الله-: (ت ٧٤١): "وهذا في غاية الضعف لأنه خروج عن سياق الكلام"[5]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ يقتضي عود الضمير -وهو الهاء في قرينه- إلى أقرب مذكور، وهو الذي يقال له: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾، وظاهرٌ من السياق أن

---

(١) سورة ق من الآية (١٦).

(٢) جامع البيان (٢١/٤٣٣)، وانظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٧/٣٧٩).

(٣) سورة ق الآيات (٣١-٣٤)، ورجح هذا القول: ابن عطية في المحرر الوجيز (٨/٤٤)، وابن كثير في تفسير القرآن العظيم (٧/٣٧٩).

(٤) المحرر الوجيز (٨/٤٤).

(٥) التسهيل (٢/٣٦٥).

كلام القرين في الآية إنما يتجه إلى الكافر، وإن عاد الضمير على قوله: ﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ جاء هذا الاعتراض لمحمد ﷺ بين الكلامين غير متمكن[1].

٢ – قول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾[2].

اختلف المفسرون في معنى ﴿ عَسْعَسَ ﴾ على قولين:

القول الأول: أن معناها أدبر، وهو مروي عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة (ت ١١٨) والضحاك، وزيد بن أسلم، وحكى بعضهم إجماع المفسرين عليه[3].

القول الثاني: أن معنى ﴿ عَسْعَسَ ﴾ أقبل، وهو مروي عن ابن جبير (ت ٩٥)، ومجاهد والحسن، وعطية العوفي (ت ١١١)[4].

وقد استدل أصحاب كل قول على صحة تفسيرهم بسياق الآيات، وهو قوله تعالى: ﴿ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾.

قال الطبري مرجحاً معنى الإدبار: " وأولى التأويلين في ذلك بالصواب عندي قول من قال: معنى ذلك: إذا أدبر، وذلك لقوله: ﴿ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾، فدلّ بذلك على أن القسم بالليل مدبراً، وبالنهار مقبلاً "[5].

وبعبارة أوضح يقول ابن عطية: " ويرجع هذا قوله بعدُ: ﴿ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾، فكأنهما حالان متصلتان، ويشهد له قول علقمة بن قرط:

حتى إذا الصبح لها تنفّسا ... وانجاب عنها ليلها وعسعسا "[6].

وممن ذكر دلالة السياق هذه: ابن الجوزي (ت ٥٩٦)، والرازي، وابن جزي، والشوكاني (ت ١٢٥٠)[7].

---

(١) المحرر الوجيز (٨/ ٤٤).

(٢) سورة التكوير الآيتان (١٧–١٨).

(٣) انظر: تهذيب اللغة (١/ ٧٨)، والجامع لأحكام القرآن (٨/ ٧٠٢٩).

(٤) انظر في القولين: جامع البيان (٢٤/ ١٥٩–١٦١)، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٨/ ٣٦٠).

(٥) جامع البيان (٢٤/ ١٦١).

(٦) المحرر الوجيز (٨/ ٥٥٠).

(٧) انظر: زاد المسير (٩/ ٤٢)، والتسهيل (٢/ ٥٤٢)، وفتح القدير (٥/ ٣٩٠).

وأما دلالة السياق على معنى أقبل، فقد قال ابن كثير بعد أن ذكر ترجيح الطبري لمعنى الإدبار: "وعندي أن المراد بقوله: ﴿عَسْعَسَ﴾ إذا أقبل، وإن كان يصح استعماله في الإدبار، لكن الإقبال هاهنا أنسب؛ كأنه أقسم تعالى بالليل وظلامه إذا أقبل، وبالفجر وضيائه إذا أشرق، كما قال: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ "[1].

وممن أشار إلى دلالة السياق هذه: أبو حيان (ت ٧٤٥)، والسمين الحلبي (ت٧٥٦)، والشوكاني[2].

وقد أجمل الآلوسي احتجاج كل فريق بالسياق بعبارة موجزة، فقال: "وقيل: كونه بمعنى أقبل ظلامه أوفق بقوله تعالى: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾، فإنه أول النهار، فيناسب أول الليل، وقيل: كونه بمعنى أدبر أنسب بهذا، لما بين إدبار الليل وتنفس الصبح من الملاصقة، فيكون بينهما مناسبة الجوار"[3].

وكلمة عسعس في اللغة تأتي على كلا المعنيين: أقبل، وأدبر، فهي من الأضداد[4]، وبناء على ذلك اختلف المفسرون فيها، لكن اختلافهم ليس من اختلاف التضاد الذي يلزم من القول بأحد المعنيين عدم القول بالآخر، وسياق الآيات يحتمل كلا المعنيين، وليس أحدهما أقوى من الآخر، وحمل الآية عليهما جميعاً غير ممتنع، فالإدبار يقع في وقت، والإقبال يقع في وقت، فيكون الله جل وعلا أقسم بالليل حال إقباله، وأقسم به حال إدباره، وكلاهما من آيات الله الكونية، واختيار القرآن الكريم لفظ عسعس دون غير من بلاغة الإيجاز، قال ابن عاشور (ت ١٣٩٣): "إيثار هذا الفعل لإفادته كلا حالين صالحين للقسم به فيهما؛ لأنهما من مظاهر القدرة إذ يعقب الظلام الضياء، ثم يعقب الضياء الظلام، وهذا إيجاز"[5].

وقال المبرد (ت ٢٨٦): أقسم تعالى بإقباله وإدباره معاً[6].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٦٠).

(٢) انظر: البحر المحيط (٨/ ٤٢٥)، والدر المصون (١٠/ ٧٠٦).

(٣) روح المعاني (٣٠/ ٥٨).

(٤) انظر: تهذيب اللغة (١/ ٧٨)، ولسان العرب (٤/ ٢٩٤١).

(٥) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٥٤).

(٦) المحرر الوجيز (٨/ ٥٥٠).

وابن كثير مع أنه رجح معنى الإقبال إلا أنه أشار إلى صحة مذهب الجمع بين القولين، فقال: " وقال كثير من علماء الأصول: إن لفظة ﴿عَسْعَسَ﴾ تستعمل في الإقبال والإدبار على وجه الاشتراك، فعلى هذا يصح أن يراد كل منهما، والله أعلم"[1].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٦٠)، وفي تهذيب اللغة (١/ ٧٩) " عَسْعَسَ الليل إذا أقبل وعَسْعَسَ إذا أدبر، والمعنيان يرجعان إلى شيء واحد، هو ابتداء الظلام في أوله، وإدبارُه في آخره "، وانظر لسان العرب (٤/ ٢٩٤١).

المطلب الثاني: طريقة الترجيح

والمراد هنا ترجيح دلالة أحد السياقين على دلالة السياق الآخر، فيقدم المعنى الذي دلالة السياق عليه أقوى، ويكون هو الأولى بمعنى الآية.

وليعلم أن ترجيح قول على آخر، أو القول بأنه أقوى لا يعني أبداً إبطال القول الآخر وإسقاطه، فقد يكون له حظ من النظر، وقد تحتمله الآية، لكن غيره أقوى منه، وقد نبه المفسرون على ذلك، فقد ذكر الماوردي -رحمه الله- : (ت٤٥٠) من أضرب الترجيح بين أقوال التفسير أن يكون هناك دليل " على صحة أحد المعنيين فيثبت حكمه، ويكون مراداً، ولا يقتضي سقوط المعنى الآخر، ويجوز أن يكون مراداً، وإن لم يكن عليه دليل، لأن موجب لفظه دليل، فاستويا في حكم اللفظ، وإن ترجح أحدهما بدليل، فصارا مرادين معاً، وذهب بعض أهل العلم إلى أن المعنى الذي يرجح بدليل أثبت حكماً من المعنى الذي تجرد عنه، ولقوته بالدليل الذي ترجح به، فهذا أصل يعتبر من وجوه التفسير، ليكون ما احتمله ألفاظ القرآن من اختلاف المعاني محمولاً عليه، فيعلم ما يؤخذ به ويعدل عنه "[١].

وكثيراً ما يقول الطبري -رحمه الله- : في الترجيح بين أقوال التفسير: وأولى الأقوال عندي في تفسير الآية كذا وكذا، ولا يسقط القول الآخر.

يقول -رحمه الله-: " وأولى القولين في ذلك بالصواب القول الذي روي عن رسول الله ﷺ، وإن كان الذي قاله قتادة في ذلك غير بعيد من الحق، وبه قال جماعة من أهل التأويل "[٢].

وأحياناً يؤكد الطبري أن القول الآخر قريب من المعنى الذي ذكره، فعند قول الله تعالى: ﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[٣]، ذكر أن المراد بالبينات: الحجج والأدلة على صحة دين الإسلام، ثم قال: " وقد قال عدد من أهل التأويل: إن البينات هي محمد ﷺ والقرآن، وذلك قريب من الذي قلنا في تأويل ذلك،

---

(١) النكت والعيون (٤٠/١).
(٢) جامع البيان (٣٢٠/٢٠)، وانظر من نفس الكتاب (٢١٧/٢، ٢٣/٩، ٦٧/١٠، ١٨٧/١٦، ٤٦٦/١٧).
(٣) سورة البقرة آية (٢٠٩).

لأن محمداً ﷺ والقرآن من حجج الله على الذين خوطبوا بهذه الآية، غير أن الذي قلناه في تأويل ذلك أولى بالحق "[1].

وسار على هذا المنهج ابن كثير: (ت ٧٧٤)، إذ يقول عند قول الله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾[2]: " يحتمل أن يكون ﴿يَوْمًا﴾ معمولا لتتقون، كما حكاه ابن جرير عن قراءة ابن مسعود: فكيف تخافون أيها الناس يوماً يجعل الولدان شيباً إن كفرتم بالله ولم تصدقوا به؟، ويحتمل أن يكون معمولاً لكفرتم، فعلى الأول: كيف يحصل لكم أمان من يوم هذا الفزع العظيم إن كفرتم؟، وعلى الثاني: كيف يحصل لكم تقوى إن كفرتم يوم القيامة وجحدتموه؟، وكلاهما معنى حسن، ولكن الأول أولى، والله أعلم "[3].

وننبه هنا إلى أن الأقوال المرجوحة وإن كانت محتملة المعنى، فإنه ينبغي تفسير القرآن الكريم بالأرجح من الأقوال، وحمل الآية على أصح المعاني والوجوه[4].

وللترجيح بين دلالات السياق وجوه عديدة، منها:

الوجه الأول: أن يكون أحد السياقين أقرب من السياق الآخر، فيقدم عليه، ويظهر هذا الوجه بجلاء في عود الضمائر، ومن القواعد المقررة عند العلماء أن الضمير يعود إلى أقرب مذكور مالم يرد دليل بخلافه، قال ابن تيمية –رحمه الله–: " والضمير يعود إلى القريب إذا لم يكن هناك دليل على خلاف ذلك "[5].

وقال أبو حيان –رحمه الله–: مرجحاً أحد الأقوال في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَءَاتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾[6]: " ومن قواعد النحويين أن الضمير لا يعود إلى غير الأقرب إلا بدليل "[7].

---

(١) جامع البيان (٦٠٣/٣). وانظر: (٢٧١/٢، ٢٧٤/٣).

(٢) سورة المزمل آية (١٧).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٢٨٣/٨). وانظر في هذه القضية قواعد الترجيح عند المفسرين (٥٢/١) وما بعدها.

(٤) انظر قواعد الترجيح عند المفسرين (٥٣/١).

(٥) مجموع الفتاوى (١١٢/١٥).

(٦) سورة البقرة من الآية (١٧٧).

(٧) البحر المحيط (٦/٢).

وقال الشنقيطي -رحمه الله-: " الضمير يرجع إلى أقرب مذكور إلا بدليل صارف عن ذلك يجب الرجوع إليه "[1].

ومن أمثلة هذا الوجه:

قول الله تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾[2].

اختلف القراء في قوله: ﴿مِن تَحْتِهَآ﴾. فقرأ بعضهم بكسر الميم وخفض التاء، وقرأ آخرون بفتح الميم ونصب التاء ﴿مَنْ تَحْتَهَا﴾[3].

وقد اختلف المفسرون على كلا القراءتين، هل المنادي جبريل أو عيسى ؟[4].

فقيل: إن المنادي عيسى -عليه السلام-، وهذا القول مروي عن أبيّ، ومجاهد، والحسن، ووهب بن منبه، وابن زيد (ت ١٨٢)، وسعيد بن جبير في إحدى الروايتين عنه[5]، وأشار إلى قرينة السياق، فقال في قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾[6]، قال: " عيسى ناداها، أما تسمع الله يقول: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ "[7].

ورجح هذا القول ابن جرير، ومكي بن أبي طالب (ت ٤٣٧)، وأبو حيان، والشنقيطي[8].

والقول الثاني: أن المنادي جبريل -عليه السلام-، وهو قول ابن عباس وسعيد بن جبير، والضحاك، وعمرو بن ميمون (ت ٧٤)، والسدي، وقتادة، واستظهره القرطبي[9].

ومن دلالة السياق على هذا القول أن الحوار في الآيات دار بين مريم وجبريل، وهذا من تتمته، وقد أشار إلى دلالة السياق هذه ابن جرير ومكي كما سيأتي قريباً.

---

(١) أضواء البيان (٤/ ٣١٠)، وانظر قواعد الترجيح عند المفسرين (٢/ ٦٢١).

(٢) سورة مريم آية (٢٤).

(٣) انظر: التيسير للداني (ص١٤٨)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٣١٨).

(٤) التسهيل لابن جزي (٢/ ٦).

(٥) انظر: جامع البيان (١٥/ ٥٠٤)، وأضواء البيان (٤/ ٣٠٩).

(٦) سورة مريم من الآية (٢٤).

(٧) سورة مريم من الآية (٢٩)، والأثر في جامع البيان (١٥/ ٥٠٤).

(٨) انظر: جامع البيان (١٥/ ٥٠٤)، والهداية (٧/ ٤٥٢٣)، والبحر المحيط (٦/ ١٧٣)، وأضواء البيان (٤/ ٣١٠).

(٩) انظر: جامع البيان (١٥/ ٥٠١)، والجامع لأحكام القرآن (٥/ ٤١٣٣)، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٥/ ٢١٨).

والراجح أن المنادي عيسى -عليه السلام- لما يأتي:

أ- أن عيسى -عليه السلام- أقرب ذكراً في الآيات من جبريل -عليه السلام-، وقد أشار إلى هذا الوجه غير واحد من المفسرين، فقال ابن جرير الطبري -رحمه الله-: " وأولى القولين في ذلك عندنا قول من قال: الذي ناداها ابنها عيسى، وذلك أنه من كناية ذكره أقرب منه من ذكر جبرائيل، فرده على الذي هو أقرب إليه أولى من رده على الذي هو أبعد منه"[1].

وقال مكي بن أبي طالب -رحمه الله-: " والاختيار عند أهل النظر في الكسر أن يكون لعيسى مثل الفتح، أي: فناداها عيسى من تحتها، وقرئ بذلك لتقدم ذكر عيسى، ولم يتقدم ذكر جبريل إلا فيما بَعُد، عند قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾[2]. فالحمل على الأقرب أولى من الأبعد "[3].

وقال الرازي-رحمه الله-: " ولقد تقدم قبل هذه الآية ذكر جبريل وذكر عيسى عليه السلام، إلا أن ذكر عيسى أقرب لقوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ﴾، والضمير هاهنا عائد إلى المسيح، فكان حمله عليه أولى "[4].

ب- القاعدة المقررة أن توحيد مرجع الضمائر في السياق الواحد أولى من تفريقها[5]، قال الزركشي -رحمه الله-: " إذا اجتمع ضمائر فحيث أمكن عودها لواحد فهو أولى من عودها لمختلف "[6].

وقال السيوطي -رحمه الله-: (ت ٩١١): " الأصل توافق الضمائر في المرجع حذراً من التشتت "[7].

---

(١) جامع البيان (١٥/٥٠٥).

(٢) سورة مريم من الآية (١٧).

(٣) الهداية (٧/٤٥٢٣).

(٤) التفسير الكبير (٧/٥٢٧)، وانظر أضواء البيان (٤/٣١٠).

(٥) قواعد الترجيح عند المفسرين (٢/٦١٣).

(٦) البرهان (٤/٣٣).

(٧) الإتقان (١/٢٤٥).

وإذا تأملت الضمائر في الآيات وجدت ما قبل الآية وما بعدها يعود إلى عيسى -عليه السلام- ، فالهاء من قوله: ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ ، وقوله: ﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ﴾ ، وقوله: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ﴾ ، وقوله: ﴿تَحْمِلُهُۥ﴾ ، وقوله: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ تعود قطعاً إلى عيسى -عليه السلام- ، فينبغي أن يكون ما بينها ، وهو: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾ لعيسى أيضاً.

وقد أشار إلى ذلك الطبري -رحمه الله- : ، فقال: " ألا ترى في سياق قوله: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾[1] يعني به: فحملت عيسى ﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ﴾ ، ثم قيل: ﴿فَنَادَىٰهَا﴾ نسقاً على ذلك من ذكر عيسى والخبر عنه "[2].

وقال الشنقيطي -رحمه الله-: " لأن الله قال: ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ ، يعني عيسى ، ﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ﴾ ، أي بعيسى ، ثم قال بعده : ﴿فَنَادَىٰهَا﴾ ، فالذي يظهر ويتبادر من السياق أنه عيسى "[3].

ج - ذكر الشنقيطي أن مريم " لما جاءت به قومها تحمله ، وقالوا لها ما قالوا ، أشارت إلى عيسى ليكلموه ، كما قال تعالى عنها : ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾[4] ، وإشارتها إليه ليكلموه قرينة على أنها عرفت قبل ذلك أنه يتكلم ، على سبيل خرق العادة لندائه لها عندما وضعته ، وبهذه القرينة الأخيرة استدل سعيد بن جبير في إحدى الروايتين عنه على أنه عيسى ، كما نقله عنه غير واحد "[5].

الوجه الثاني من وجوه الترجيح: أن تكون دلالة أحد السياقين أظهر في الدلالة من السياق الآخر ، بحيث تكون دلالة أحد السياقين على معناه خفية.

ويؤكد الزركشي : أن اللفظ إذا احتمل معنيين أحدهما أظهر من الآخر ، فيجب الحمل على الظاهر ، إلا أن يقوم دليل على أن المراد هو الخفي دون الجلي ، فيحمل عليه[6].

---

(١) سورة مريم آية (٢٢).
(٢) جامع البيان (١٥/٥٠٥).
(٣) أضواء البيان (٤/٣١٠).
(٤) سورة مريم آية (٢٩).
(٥) أضواء البيان (٤/٣١٠) ، وانظر: جامع البيان (١٥/٥٠٥) ، والتفسير الكبير (٧/٥٢٧).
(٦) البرهان (٢/٣٠٨).

ومن أمثلة هذا الوجه:

قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾[1].

اختلف في المراد بالسبيل على قولين: أحدهما: أن المراد السبيل خروج الإنسان من بطن أمه، وقال بهذا القول: ابن عباس، وعكرمة (ت ١٠٤)، والضحاك، وقتادة، والسدي، واختاره ابن جرير[2].

والقول الآخر أن المراد به طريق الخير والشر، وقال به: مجاهد، والحسن، وابن زيد، ورجحه ابن كثير[3].

وفي سياق الآيات الدلالة على كلا المعنيين:

أما دلالته على القول الأول فهو أن الآيات قبل هذه الآية تكلمت عن خلق الإنسان ونشأته ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾[4]، ثم تكلمت بعد هذه الآية عن موته وقبره وبعثه، فالكلام متصل في بيان الأطوار التي يمر بها الإنسان في حياته.

وأما دلالة السياق على القول الثاني فهو أن الله تعالى أخبر أن الإنسان لم يقض ما أمره به، قال تعالى: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾[5]. فالله قد يسر السبيل للإنسان وبينه ووضحه له، ومع ذلك قد يفعل الإنسان ما لا يرضي ربه، ولا يقوم بالحق الواجب[6].

وإذا تأملت السياقين وجدت أن السياق ظاهر الدلالة على المعنى الأول، فقد دل عليه السباق واللحاق، يقول ابن جرير -رحمه الله-: "أولى التأويلين في ذلك عندي بالصواب قول من قال: ثم الطريق، وهو الخروج من بطن أمه يسره، وإنما قلنا ذلك أولى التأويلين بالصواب، لأنه أشبههما بظاهر الآية، وذلك **أن الخبر من الله قبلها وبعدها** عن صفة خلقه

---

(١) سورة عبس آية (٢٠).

(٢) انظر: جامع البيان (١١٢/٢٤)، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣٤٥/٨).

(٣) انظر المصدرين السابقين.

(٤) سورة عبس الآيات (١٦-١٩).

(٥) سورة عبس آية (٢٣).

(٦) انظر: نظم الدرر (٢٦٢/٢١)، والتحرير والتنوير (١٢٣/٣٠)، وتتمة عطية سالم على أضواء البيان (٥٥/٩).

وتدبيره جسمه، وتصريفه إياه في الأحوال. فالأولى أن يكون أوسط ذلك نظير ما قبله وما بعده "[1].

ويقول ابن عاشور -رحمه الله-: " وفيه مناسبة لقوله بعده: ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴾[2]. ف ﴿ أَمَاتَهُۥ ﴾. و (أَقْبَرَهُ) مقابل ﴿ خَلَقَهُۥ ﴾: لأن الإقبار إدخال في الأرض، وهو ضد خروج المولود إلى الأرض"[3].

أما دلالة قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴾ على معنى طريق الخير والشر ففيها نوع خفاء، بل إنها تدل على المعنى الآخر. فالإنسان مع هذه النعم من خلقه، وتيسير خروجه إلى الدنيا لم يقابل هذه النعم بالشكر، ولم يقض ما أمره الله تعالى به.

ولما كانت دلالة السياق على معنى طريق الخير والشر بهذا الخفاء لجأ بعض المفسرين إلى دليل آخر خارج السياق، فعن مجاهد قال: سبيل الشقاء والسعادة، وهو كقوله: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ ﴾[4].

وذهب بعض المفسرين إلى تصويب كلا القولين[5]، والله تعالى أعلم.

---

(١) جامع البيان (١١٣/٢٤)، ورجحه أيضاً بدلالة هذا السياق ابن جزي في التسهيل (٥٣٨/٢).

(٢) سورة عبس (٢١).

(٣) التحرير والتنوير (١٢٣/٣٠).

(٤) سورة الإنسان من الآية (٣)، وانظر: جامع البيان (١١٢/٢٤).

(٥) انظر: نظم الدرر (٢٦١/٢١)، والتحرير والتنوير (١٢٣/٣٠)، ونظير هذه الآية قول الله تعالى: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ [سورة البلد: ١٠]. فإن للمفسرين في معنى النجدين قولين دل السياق على كل منهما: القول الأول: وعليه أكثر المفسرين أن المراد بالنجدين طريق الخير والشر. فإن أصل معنى النجد: الأرض المرتفعة ارتفاعاً دون الجبل. وقد أشار ابن عاشور إلى دلالة السياق على هذا المعنى، فقال: " واستعير النجدان للخير والشر، وجعلا نجدين لصعوبة اتباع أحدهما وهو الخير. فغلب على الطريقين، أو لأن كل واحد صعب باعتبار. فطريق الخير صعوبته في سلوكه، وطريق الشر صعوبته في عواقبه، ولذلك عبر عنه بعد هذا بالعقبة " [التحرير والتنوير (٣٥٥/٣٠)]. والقول الثاني: أن المراد بالنجدين الثديان. والمعنى أن الله هدى الإنسان للرضاع من ثديي أمه. وهذا القول مروي عن ابن عباس وقتادة. ومن دلالة السياق على هذا المعنى أن الآية جاءت في سياق تعداد النعم على الإنسان الذي حصل منه جحود للنعمة وكفر بها. فالمنة عليه بالرضاع من لبن أمه مناسب للمنة عليه بالعينين واللسان والشفتين في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾ [سورة البلد: ٨-٩]. وانظر تفسير جزء عم د. الطيار (ص١٥٠).

الوجه الثالث: أن تتوارد دلالات أحد السياقين على تأييد أحد المعاني، فيستدل المفسر على المعنى الذي يرجحه بمواطن عديدة من سياقات الآية، فتكون أكثر من دلالة السياق الآخر على معناه، وهذه الدلالات السياقية تعطي المعنى قوة، وتزيد من غلبة الظن برجحانه.

وفي شرح الكوكب المنير[1]: " كثرة الأدلة تفيد تقوية الظن؛ لأن الظَّنَّين أقوى من الظن الواحد، لكون الأكثر أدلة أقرب إلى القطع، فيرجح بذلك ".

ومن أمثلة هذا الوجه[2]:

١- قول الله تعالى عن إبراهيم -عليه السلام-: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾ الآيات[3].

فقد اختلف المفسرون هل كان إبراهيم -عليه السلام- في حالته هذه مناظراً لقومه محتجاً عليهم ببطلان آلهتهم، أو كان ناظراً؟.

فروي عن ابن عباس وغيره أن المقام مقام نظر، وأنه وقع له في بداية أمره ووقت طفولته، وأنه كان في غار، فجنَّ عليه الليل فقال ما ذكر الله عنه، وفي بعض الروايات التصريح بأنه عبد الكواكب، ثم توصل بهذا النظر والتفكر إلى توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة، ورجح هذا القول ابن جرير:، واستدل بقول إبراهيم -عليه السلام- حين أفل القمر: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾[4].

وذهب فريق من المفسرين إلى أن المقام مقام محاجة لقومه ومناظرة لا اعتقاداً[5]. ورجحه ابن عطية، وابن كثير، وابن جزي، والقاسمي (ت ١٣٣٢)، والشنقيطي وغيرهم[6].

---

(١) (٤/٦٣٤).

(٢) المثال السابق في قصة مريم يصلح أن يكون مثالاً هنا، فقد اجتمعت ثلاث قرائن من السياق ترجح أحد المعنيين كما سبق في مبررات الترجيح.

(٣) سورة الأنعام الآيات (٧٦-٨٣).

(٤) سورة الأنعام من الآية (٧٧)، وانظر: جامع البيان (٩/٣٦١)، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/٢٨٥).

(٥) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (٢/٧٣٢)، والجامع لأحكام القرآن (٣/٢٤٦١).

(٦) انظر: المحرر الوجيز (٣/٤٠٢)، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/٢٨٥)، والتسهيل (١/٢٧٦)، ومحاسن التأويل (٦/٢٣٧٦)، وأضواء البيان (٢/٢٣٦).

ويدل لهذا الرأي عدة دلالات من السياق، ومنها:

أ – أن إبراهيم –عليه السلام– قد عرف ربه قبل هذه الواقعة، فقد ذكر الله تعالى أنه قال لأبيه قبل قصته مع الكواكب: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[1]، وهذا يدل على أنه من الموقنين قبل ذلك[2].

ب – قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾[3]، ثم قال بعد ذلك: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ﴾، فعقب بالفاء، وهي تقتضي الترتيب، فثبت أن هذه القصة إنما وقعت بعد أن صار إبراهيم –عليه السلام– من الموقنين العارفين بربه[4].

ج – قوله تعالى: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ﴾[5]، وقوله: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾[6]، وهاتان الآيتان تدلان على أن هناك محاجة وقعت بين إبراهيم وقومه[7].

د – أن الله تعالى قال: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾، ولم يقل على نفسه، فعلم أن هذه المباحثة إنما جرت مع قومه، لأجل أن يرشدهم إلى الإيمان والتوحيد، لا لأجل أن إبراهيم كان يطلب الدين والمعرفة لنفسه[8].

هـ – أن قول الله تعالى في آخر القصة: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾[9] يضعف أن يكون المقام مقام نظر، قال ابن عطية: " وهي ألفاظ تقتضي محاجة ورداً على قوم، وحاله في الغار بعيدة عن مثل هذا "[10]، وبخاصة إذا علمنا أن قوله: ﴿ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾، جاء مباشرة بعد العطف بالفاء في قوله: ﴿ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ ﴾.

---

(١) سورة الأنعام آية (٧٤).

(٢) انظر التفسير الكبير للرازي (٥/٣٩).

(٣) سورة الأنعام آية (١٧٥).

(٤) التفسير الكبير (٣/٣٩)، وأضواء البيان (٢/٢٣٧).

(٥) سورة الأنعام من الآية (٨٠).

(٦) سورة الأنعام آية (٨٣).

(٧) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/٢٨٦)، وأضواء البيان (٢/٢٣٧).

(٨) التفسير الكبير (٣/٤٠).

(٩) سورة الأنعام من الآية (٧٨).

(١٠) المحرر الوجيز (٣/٤٠٢).

و – أن الآيات دلت على أن القصة وقعت له أثناء دعوة قومه، قال الله تعالى: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ ﴾[1]. فهذه الآيات تدل على أن قومه خوفوه بالأصنام، وعلم بذلك أنه كان يدعوهم إلى التوحيد وإفراد الله بالعبادة، وهذا يدل على أنه كان من الموقنين[2].

وإذا قارنت بين دلائل السياق لكلا القولين تبين لك أنها أقوى في الدلالة على القول الثاني، وهو أن إبراهيم كان مناظراً لقومه محاجاً لهم.

وهناك قرائن أخرى تدل على ضعف القول بأن إبراهيم –عليه السلام– كان ناظراً، فإن الله تعالى نفى أن يكون إبراهيم مشركاً في الزمن الماضي في قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[3]. ونفي الكون الماضي يستغرق جميع الزمن الماضي، فثبت أنه لم يتقدم عليه شرك يوماً ما[4].

ولما ذكر ابن الجوزي القول الآخر واحتجاجهم بقوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾، وأنه يدل على نوع تحير، وأنه قال هذا في حال طفولته على ما سبق إلى وهمه، قبل أن يثبت عنده دليل، عقب بقوله: " وهذا القول لا يرتضى، والمتأهلّون للنبوة محفوظون من مثل هذا على كل حال "[5].

وأجاب عن الآية التي احتجوا بها بأن الأنبياء عليهم السلام ما زالوا يسألون الله الهدى، ويتضرعون إليه في دفع الضلال عنهم، كقوله تعالى: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾[6]، وقد آتى الله إبراهيم رشده من قبل، وأراه ملكوت السموات والأرض ليكون موقناً، فكيف لا يعصمه عن مثل هذا التحير؟![7].

---

(١) سورة الأنعام الآيتان (٨٠–٨١).
(٢) التفسير الكبير (٥/٤٠).
(٣) سورة آل عمران آية (٦٧).
(٤) أضواء البيان (٢/٢٣٧).
(٥) زاد المسير (٣/٧٤).
(٦) سورة إبراهيم من الآية (٣٥).
(٧) زاد المسير (٣/٧٤). وانظر: المحرر الوجيز (٣/٤٠٢)، ومعالم التنزيل (٣/١٦١)، والتفسير الكبير (٥/٣٩)، والجامع لأحكام القرآن (٣/٢٤٦١). ودفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب (ص٤٣).

قال ابن كثير -رحمه الله-: " وكيف يجوز أن يكون إبراهيم الخليل ناظراً في هذا المقام، وهو الذي قال الله في حقه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ الآيات[1]، .....وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[2]. وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: " كل مولود يولد على الفطرة "[3] ..... فإذا كان هذا في حق سائر الخليقة، فكيف يكون إبراهيم الخليل الذي جعله الله ﴿أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ناظراً في هذا المقام ؟!، بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة، والسجية المستقيمة بعد رسول الله ﷺ بلا شك ولا ريب "[4].

٢ - قول الله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾[5].

اختلف المفسرون في المراد بالنبأ، فقال بعضهم: إن المراد به القرآن الكريم، وروي هذا القول عن ابن عباس، وهو قول مجاهد، ونسبه بعض المفسرين إلى أكثر العلماء[6].

وقال آخرون: إن المراد به البعث والجزاء، وقال به قتادة، وابن زيد، ورجحه الرازي، وابن كثير، والآلوسي (ت ١٢٧٠)، ونسبه للجمهور، وأكد أنه الأنسب بالآيات[7].

وقد استدل أصحاب القول الأول بالسياق، وهو قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾، فالكفار اختلفوا في القرآن، فجعله بعضهم سحراً، وبعضهم شعراً، وبعضهم كهانة،

---

(١) سورة الأنبياء الآيتان (٥١-٥٢).

(٢) سورة الأنعام آية (١٦١).

(٣) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين (١٠٤/٢)، وصحيح مسلم كتاب القدر، (٢٠٤٧/٤) برقم (٢٦٥٨).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٢٨٦/٣) باختصار، وقد أسهب الرازي في ذكر الوجوه في الرد على هذا القول، وذكر أن أكثر المحققين اتفقوا على فساده.

(٥) سورة النبأ الآيات (١-٣).

(٦) انظر: معالم التنزيل (٣١١/٨)، والجامع لأحكام القرآن (٦٩٦١/٨).

(٧) انظر: جامع البيان (٦/٢٤)، والتفسير الكبير (٦/١١)، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣٢٦/٨)، وروح المعاني (٣/٣٠).

وقال بعضهم: هو أساطير الأوّلين، قالوا: وأما البعث فقد اتفق الكفار إذ ذاك على إنكاره[1].

والراجح - والله أعلم - تفسير النبأ العظيم بالبعث، لأن السياق فيه أقوى، فالسورة من أولها إلى آخرها في تقريره، وبيان ذلك من وجوه:

أ - ذكر الله تعالى دلائل قدرته على البعث بعد الموت في قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ الآيات[2]، فجاءت الآيات بهذه المقدمة، لبيان قدرة الله تعالى على البعث[3]، وهذه الدلائل ذكرها في مواطن عديدة من كتابه للدلالة على البعث، مثل قول الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝٩ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾[4]، فقد ذكر الله خلق السماء والأرض والجبال وإنبات النبات ... ثم عقب بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾.

ونظير هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝٩ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾[5].

ب - ومما يؤكد ذلك أن الله تعالى لما ذكر هذه الدلائل عقب بقوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾[6]، قال القرطبي -رحمه الله-: (ت ٦٧١): "والأظهر أن سؤالهم إنما كان عن البعث، قال بعض علمائنا: والذي يدل عليه قوله عز وجل: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾، يدل على أنهم كانوا يتساءلون عن البعث"[7].

---

(١) فتح القدير (٥/٣٦٣).

(٢) سورة النبأ (٦-١٦).

(٣) التفسير الكبير (٦/١١).

(٤) سورة ق الآيات (٦-١١).

(٥) سورة الزخرف الآيات (٩-١١).

(٦) سورة النبأ آية (١٧).

(٧) الجامع لأحكام القرآن (٨/٦٩٦١).

ج - ذكر الله تعالى الأهوال التي تقع في يوم القيامة، مثل: فتح السماء وتسيير الجبال، في قوله: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ۝١٨ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ۝١٩ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾[1].

د - ذكر الله تعالى مصير أهل النار ومصير أهل الجنة من قوله: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ لِّلطَّاغِينَ مَآبًا﴾ إلى نهاية السورة[2].

وأما قول الله تعالى عن النبأ: ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾، فيمكن أن يصدق على يوم البعث، ويكون اختلافهم في البعث من جهة اختلاف طوائف الكفار فيه، فأثبت النصارى المعاد الروحاني، وأثبتت طائفة من اليهود المعاد الجسماني، وكان بعض طوائف كفار العرب ينكر المعاد، كما حكى الله عنهم بقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[3]، وكانت طائفة منهم غير جازمة بنفيه بل شاكة فيه، كما حكى الله عنهم بقوله: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾[4]، وما حكاه عنهم بقوله: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾[5].

قال الشوكاني -رحمه الله-: بعد أن ذكر هذا: " فقد حصل الاختلاف بين طوائف الكفر على هذه الصفة "[6].

وهذا على احتمال أن الضمير في ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ للكفار، ويحتمل أن يراد به جميع العالم، فيكون الاختلاف حينئذٍ بتصديق المؤمنين، وتكذيب الكافرين، ونزغات الملحدين[7].

---

(١) (١٨-٢٠).

(٢) انظر في تقرير دلالة السياق ما ذكره عطية سالم : في تفسيره لهذه السورة في تتمة أضواء البيان (٦/٩).

(٣) سورة المؤمنون آية (٣٧).

(٤) سورة الجاثية من الآية (٣٢).

(٥) سورة فصلت من الآية (٥٠).

(٦) فتح القدير (٥/٣٦٣)، وانظر: التفسير الكبير (٦/١١)، والجامع لأحكام القرآن (٨/٦٩٦١).

(٧) المحرر الوجيز (٨/٥١٢)، وانظر: النكت والعيون (٦/١٨٣)، ومعالم التنزيل (٨/٣١١)، وزاد المسير (٩/٥)، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٨/٣٢٦)، وروح المعاني (٣٠/٤).

وجاء ذلك صراحة عن قتادة : ، فقد نقل عنه الطبري أنه قال: عن النبأ ﴿ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ البعث بعد الموت ، فصار الناس فيه فريقين: مصدق ومكذب ، فأما الموت فقد أقروا به لمعاينتهم إياه ، واختلفوا في البعث بعد الموت[1].

وقد ذكر ابن كثير –رحمه الله–: الاختلاف في النبأ ، ورجح أنه البعث بعد الموت ، واستدل لترجيحه بقوله: ﴿ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ ، وقال: " يعني: الناس فيه على قولين: مؤمن به وكافر "[2].

٣ – قول الله تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾[3].

اختلف المفسرون في المراد بالعذاب العقيم على قولين:

القول الأول: أن المراد به يوم بدر ، وقال به: أبيٌّ بن كعب ، ومجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، ونسبه البغوي (ت ٥١٦) للأكثرين ، ورجحه الطبري –رحمه الله– ، ومكي بن أبي طالب ، وابن عطية[4].

القول الثاني: أن المراد باليوم العقيم يوم القيامة ، وقال به: مجاهد وعكرمة في إحدى الروايتين عنهما ، والضحاك ، والحسن البصري ، ورجحه الرازي ، وابن كثير ، وابن جزي ، والآلوسي ، والشنقيطي[5].

وقد استدل أصحاب القول الأول بالسياق ، وفي تقريره يقول الطبري: " وهذا القول الثاني [أي يوم بدر] أولى بتأويل الآية ، لأنه لا وجه لأن يقال: لا يزالون في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة ، أو تأتيهم الساعة ؛ وذلك أن الساعة هي يوم القيامة ، فإن كان

---

(١) جامع البيان (٧/٢٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣٢٦/٨).

(٣) سورة الحج آية (٥٥).

(٤) انظر: جامع البيان: (٦١٦/١٦) ، والهداية (٤٩٢١/٧) ، والمحرر الوجيز: (٢٦٦/٦) ، ومعالم التنزيل (٣٩٦/٥).

(٥) انظر: جامع البيان (٦١٦/١٦) ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: (٤٤٣/٥) ، والتفسير الكبير (٢٤٢/٨) . والتسهيل (٦٢/٢) ، وروح المعاني (١٧٥/١٧) ، وأضواء البيان: (٨٠٣/٥).

اليوم العقيم أيضاً هو يوم القيامة، فإنما معناه ما قلنا من تكرير ذكر الساعة مرّتين باختلاف الألفاظ، وذلك ما لا معنى له "[1].

ويقول ابن عطية: " قالت فرقة: أراد يوم القيامة، واليوم العقيم يوم بدر، وقالت فرقة: الساعة موتهم أو قتلهم في الدنيا، كيوم بدر ونحوه، واليوم العقيم يوم القيامة، وهذان القولان جيدان، لأنهما أحرزا التقسيم بأو، ومن جعل الساعة واليوم العقيم يوم القيامة، فقد أفسد رتبة أو "[2].

غير أن استدلال أصحاب القول الثاني بالسياق أقوى وأكثر دلالات من أصحاب القول الأول، فقد استدلوا بالسباق واللحاق، وبيان ذلك بالآتي:

أ – أن الله تعالى ذكر في أول الآية أن الكفار لا يزالون في مرية من القرآن حتى تأتيهم الساعة بغتة، أو يأتيهم عذاب عقيم، والكفار لم يزالوا في مرية حتى بعد وقعة بدر، وهذا ما تنفيه الآية، قال الرازي –رحمه الله–: " لا يجوز أن يقول الله تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾، ويكون المراد يوم بدر؛ لأن من المعلوم أنهم في مرية بعد يوم بدر "[3].

ب – أن الله تعالى قال: ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾، ثم عقب بقوله: ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾[4]، والمراد باليوم المذكور في الآية يوم القيامة قطعاً، وعليه فاليوم العقيم هو يوم القيامة، قال الشنقيطي –رحمه الله–: " القرينة القرآنية هنا دلت على أن المراد باليوم العقيم: يوم القيامة، لا يوم بدر، وذلك أنه تعالى أتبع ذكر اليوم العقيم بقوله: ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾، وذلك يوم القيامة، وقوله: ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي: يوم إذ تأتيهم الساعة، أو يأتيهم عذاب عقيم، وكل ذلك يوم القيامة، فظهر أن اليوم العقيم: يوم القيامة "[5].

---

(١) جامع البيان: (٦١٧/١٦)، وينظر: المراجع السابقة.

(٢) المحرر الوجيز: (٢٦٦/٦).

(٣) التفسير الكبير (٢٤٢/٨).

(٤) سورة الحج من الآية (٥٦).

(٥) أضواء البيان: (٨٠٣/٥)، وانظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير: (٤٤٣/٥)، والتسهيل: (٦٢/٢).

وقال الرازي –رحمه الله–: " أما قوله: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ فمن أقوى ما يدل على أن اليوم العقيم هو ذلك اليوم، وأراد بذلك أنه لا مالك في ذلك اليوم سواه، فهو بخلاف أيام الدنيا التي ملّك الأمور غيره"[1].

وفي تفسير أبي السعود[2]: " وأما ما قيل من أن المراد يوم حرب يقتلون فيه كيوم بدر... فمما لا يساعده سياق النظم الكريم أصلاً، كيف لا ؟!، وإن تخصيص الملك والتصرف الكلي فيه بالله عز و جل، ثم بيان ما يقع فيه من حكمه تعالى بين الفريقين بالثواب والعذاب الأخرويين يقضي بأن المراد به يوم القيامة قضاءً بيناً لا ريب فيه ".

ج – ما قيل من لزوم التكرار إن فسر اليوم العقيم بيوم القيامة، يجاب عنه بأن الأمر ليس كذلك، فإن الله تعالى ذكر الساعة، وذكر أشد ما يقع فيها، وهو العذاب العقيم، وأشده عذاب جهنم، ولو كانت الآية: حتى تأتيهم الساعة أو يوم عقيم، لكان لهذا الاعتراض وجه، ولكن الله ذكر العذاب بخصوصه اهتماماً بشأنه وتخويفاً وترهيباً للكافرين، ولأنه أشد ما يقع على الكفار يوم القيامة، قال الآلوسي –رحمه الله–: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾، أي: منفرد عن سائر الأيام لا مثل له في شدته، أو لا يوم بعده، كأن كل يوم يلد ما بعده من الأيام، فما لا يوم بعده يكون عقيماً، والمراد به الساعة بمعنى يوم القيامة أيضاً، كأنه قيل: أو يأتيهم عذابها، فوضع ذلك موضع ضميرها لمزيد التهويل والتخويف "[3]، والله أعلم.

الوجه الرابع من أوجه الترجيح:

أن تحتف بأحد السياقين مرجحات أخرى تقوي دلالته، مثل: الاستدلال بالقرآن، أو بالسنة، أو باللغة العربية على ترجيح دلالة أحد السياقين على دلالة الآخر.

ومن المرجحات التي يُلجأ إليها عند التعارض: تقديم ما عضده دليل آخر على ما لم يعضده دليل آخر، لاجتماع دليلين في مقابلة دليل واحد[4].

---

(١) التفسير الكبير (٨/٢٤٢).

(٢) (٤/٣٧).

(٣) روح المعاني (١٧/١٧٥)، وانظر التفسير الكبير (٨/٢٤٢).

(٤) انظر: شرح مختصر الروضة للطوفي (٣/٧٠٧)، وإرشاد الفحول (ص٢٧٩).

ومن أمثلة هذا الوجه:

قول الله تعالى: ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾[1].

اختلف المفسرون في معنى النجم، فذهب بعضهم إلى أن النجم هو الكوكب المعروف في السماء، وهذا قول مجاهد، والحسن، وقتادة، ورجحه ابن كثير، والشنقيطي.

وقال آخرون: هو النبات الذي لا ساق له؛ المنبسط على وجه الأرض، وهذا قول ابن عباس، وسعيد بن جبير، والسدي، وسفيان الثوري (ت١٦١)، واختاره ابن جرير، وأبو حيان، والآلوسي، واستدلوا بالسياق[2].

واتفق المفسرون على أن معنى الشجر هو ما قام على ساق[3].

وقد وجه ابن عطية دلالة السياق على المعنيين، فقال عن كون النجم نباتاً: "وهو مناسب للشجر نسبة بينة"، وقال عن كونه كوكباً: "والنسبة التي لها من السماء هي التي للشجر من الأرض، لأنها في ظاهرهما"[4].

فسياق الآيات دل على المعنيين: أما الكوكب؛ فلأن الله تعالى ذكر عدة أشياء تناسب الكوكب، فذكر الشمس والقمر وهي من الكواكب، وذكر السماء التي هي وعاء للنجم ومحيطة به، أما على معنى النبات فإن الله تعالى ذكر عدة أشياء تناسبه، فذكر الشجر والحب ذو العصف، وهو مما لا ساق له، وذكر الفاكهة والنخل ذات الأكمام: ﴿ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴾[5].

---

(١) سورة الرحمن الآيات (٥-٧).

(٢) انظر في القولين: جامع البيان (١٧٤/٢٢)، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤٦٤/٧)، والبحر المحيط (١٨٧/٨)، وروح المعاني (١٠٠/٢٧)، وأضواء البيان (٧٨٧/٧).

(٣) حكى الاتفاق ابن جرير الطبري في جامع البيان (١٧٣/٢٢)، وابن كثير في تفسير القرآن العظيم (٤٦٤/٧).

(٤) المحرر الوجيز (١٦٠/٨).

(٥) سورة الرحمن الآيتان (١١-١٢).

ويوجه أبو حيان قوله تعالى: ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾، فيقول: " والتناسب الذي بين هاتين الجملتين ظاهر، لأن الشمس والقمر علويان، والنجم والشجر سفليان "[1].

إلا أن الذي يترجح عندي – والله أعلم – أن تفسير النجم بالكوكب أقوى لما يلي:

أ – أن النجم ورد في القرآن في مواطن عدة، والمراد به الكوكب[2]، وحمل معاني كلام الله على الغالب من أسلوب القرآن ومعهود استعماله أولى من الخروج به عن ذلك[3]، قال ابن القيم: " النجوم حيث وقعت في القرآن، فالمراد منها الكواكب كقوله تعالى: ﴿ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾[4]، وقوله: ﴿ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ ﴾ "[5].

ب – أن الله تعالى ذكر في سورة الحج سجود النجم وهو بالاتفاق: الكوكب، وقد استدل الشنقيطي: بآية الحج، وقال: " الذي يظهر لي صوابه أن المراد بالنجم هو نجوم السماء، والدليل على ذلك أن الله – جل وعلا – في سورة الحج صرح بسجود نجوم السماء والشجر، ولم يذكر في آية من كتابه سجود ما ليس له ساق من النبات بخصوصه، ونعني بآية الحج قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ ﴾ الآية[6]، فدلت هذه الآية أن الساجد مع الشجر في

---

(١) البحر المحيط (٨/ ١٨٨)، وفي الكشاف (٦/ ٦): " إنّ الشمس والقمر سماويان، والنجم والشجر أرضيان، فبين القبليلين تناسب من حيث التقابل ".

(٢) ورد ذكر النجم في القرآن بالإفراد والجمع ثلاث عشرة مرة، وفي بعضها اختلاف هل يراد به الكوكب المعروف أو غيره، مثل قول الله تعالى: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ [النجم: ١] ، وقوله ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ [الواقعة: ٧٥]، وقوله: ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴾ [الصافات: ٨٨]، والراجح في هذه المواطن أنه الكوكب.

(٣) بدائع الفوائد (٣/ ٣٢)، وقواعد الترجيح عند المفسرين (١/ ١٧٢)، وذكر الشنقطي: في أضواء البيان (١/ ٢٣) أن من أنواع البيان في القرآن الكريم الاستدلال على أحد المعاني الداخلة في معنى الآية بكونه هو الغالب في القرآن، وغلبته فيه دليل على عدم خروجه من معنى الآية.

(٤) سورة الطور من الآية (٤٩).

(٥) سورة الحج من الآية (١٨)، وانظر التبيان في أيمان القرآن (٣٢٢).

(٦) سورة الحج آية (١٨).

آية الرحمن هو النجوم السماوية، المذكورة مع الشمس والقمر في سورة الحج، وخير ما يفسر به القرآن القرآن، وعلى هذا الذي اخترناه، فالمراد بالنجم: النجوم "[1].

ج – أن ذكر الشجر – وهو نبات – مع النجم يقابل بذكر الشمس والقمر قبله – وهما من الكواكب – وذكر السماء بعده وهي وعاؤه، وإذا أضفنا إليه ورود النجم في القرآن الكريم كله بمعنى الكوكب ترجح هذا المعنى على المعنى الآخر، والله تعالى أعلم.

والمعنى الآخر له وجه قوي من النظر، وقد ذهب ابن عاشور –رحمه الله–: إلى احتمال الآية للمعنيين، فالنجم على معنى الكوكب يسجد بدلالة آية الحج، والنجم على معنى النبات يسجد، وسجوده داخل في عموم قول الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾[2]، والله تعالى أعلم.

وقد يتوقف بعض المفسرين عن الجزم بصحة أحد الأقوال في معنى الآية نظراً لتكافؤ الأدلة لديه، وتنازع السياق في الدلالة على المعنى، ومن أمثلته:

قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾[3].

اختلف المفسرون في وعد النبي ﷺ المؤمنين بإمداد الله تعالى لهم بالملائكة، المذكور في قوله: ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾:

فقيل: إن الوعد المذكور في الآية وقع يوم بدر، وهذا قول ابن عباس، والحسن، والشعبي، وقتادة، والربيع بن أنس (ت ١٤٠). ونسبه بعض المفسرين للجمهور[4]، ومال

---

(١) أضواء البيان (٧/٧٨٧).

(٢) سورة الرعد آية (١٥). وانظر التحرير والتنوير (٢٧/٢٣٦).

(٣) سورة آل عمران الآيات (١٢٣– ١٢٥).

(٤) المحرر الوجيز (٢/٣٤٣)، والبحر المحيط (٣/٥٢).

إليه ابن جرير الطبري، ورجحه ابن الجوزي، وأبو حيان –رحمه الله–، والقرطبي، وابن كثير، والشنقيطي[1].

والقول الثاني: أن الوعد المذكور وقع يوم أحد، وهو قول مجاهد، وعكرمة، والضحاك، والزهري (ت ١٢٤)، ومال إليه ابن تيمية، وابن القيم[2].

وقد استدل أصحاب كل قول بسياق الآيات:

ففي دلالة السياق على القول الأول يقول أبو حيان: " ظاهر هذه الآية اتصالها بما قبلها، وأنّها من قصة بدر، وهو قول الجمهور، فيكون "إذ" معمولاً لنصركم "[3].

ويقول القاسمي –رحمه الله–: " سياق ما قبله يدل عليه، وهو قوله: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ ﴾[4] ف "إذ" ظرف لنصركم، أي: نصركم وقت قولك للمؤمنين، وقد أظهروا العجز واستغاثوا ربهم....ومما يؤيد هذا الوجه أن سياق بدر في الأنفال من قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ ﴾ الآيات[5]، شبيهة بهذا السياق هنا، كما يذوقه من تدبره "[6].

ويقول ابن عاشور –رحمه الله–: " وبهذا الوجه فسر الجمهور، وهو الذي يقتضيه السياق "[7].

ومن دلالة السياق على القول الثاني أن آيات السورة في سياق قصة أحد، وإنما ذكرت غزوة بدر اعتراضاً في أثنائها[8].

---

(١) انظر: جامع البيان (٦/ ٢٨)، وتفسير القرآن لابن أبي حاتم (٣/ ٧٥٢)، وزاد المسير (١/ ٤٥١)، والبحر المحيط (٣/ ٥٢)، والجامع لأحكام القرآن (٢/ ١٤٣٤-١٤٣٥)، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢/ ٩٣-٩٤)، ودفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب (ص٥٣).

(٢) انظر: جامع البيان (٦/ ٢٧)، وتفسير القرآن لابن أبي حاتم (٣/ ٧٥٢)، ومجموع الفتاوى لابن تيمية (١٥/ ٣٧)، وزاد المعاد (٣/ ١٧٧-١٧٨)، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢/ ٩٤).

(٣) البحر المحيط: (٣/ ٥٢).

(٤) سورة آل عمران من الآية (١٢٣).

(٥) سورة الأنفال الآيات (٧-١٠).

(٦) محاسن التأويل: (٤/ ٩٦٤) وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٩٤): " وهذا السياق [سياق سورة الأنفال] شبيه بهذا السياق في سورة آل عمران، فالظاهر أن ذلك كان يوم بدر، كما هو المعروف من أن قتال الملائكة إنما كان يوم بدر، والله أعلم".

(٧) التحرير والتنوير (٤/ ٧٣).

(٨) زاد المعاد (٣/ ١٧٨).

وقد ذكر الرازي القولين، وأفاض في ذكر حجج كل قول، ومنها استدلال كل فريق بالسياق، ثم عقب بقوله: "فهذا حاصل ما قيل في تقرير هذين القولين، والله أعلم بمراده "[1].

وبالنظر في دلالات السياق في السورة يظهر أن بينها تكافؤاً في القوة، فقوة اتصال قوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ يقابله في القوة أن القصة في سورة آل عمران لغزوة أحد، وذكرت فيها مستوفاة مطولة، وغزوة بدر إنما ذكرت اعتراضاً للتذكير بنعمة النصر.

وقد ذكر القائلون بأن المراد غزوة أحد دلالات من السياق قريبة من ذكر غزوة بدر تؤيد مذهبهم، مثل: قول الله تعالى: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾، قالوا: والمراد: ويأتوكم أعداؤكم من فورهم، ويوم أحد هو اليوم الذي كان يأتيهم الأعداء، فأما يوم بدر فالأعداء ما أتوهم، بل هم ذهبوا إلى الأعداء[2]، وهذه الدلالات يمكن أن تحمل عليها غزوة بدر[3].

ومن أقوى ما احتج به أصحاب القول الأول ما ثبت أن الملائكة نزلت في غزوة بدر وقاتلت، بينما لم يحصل المدد في غزوة أحد، واحتاج العلماء هنا إلى الجواب عن ما جاء في سورة الأنفال في قول الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩﴾، وما ذكر في سورة آل عمران من أنهم أمدوا بأكثر من ذلك.

والجواب أن التنصيص على الألف في الأنفال لا ينافي الثلاثة الآلاف فما فوقها، فالله وعد المؤمنين بألف ثم صارت ثلاثة آلاف، ثم صارت خمسة آلاف ووجه الجمع بين الآيتين أن الله وعدهم بألف من الملائكة، وأطمعهم بالزيادة بقوله: ﴿مُرْدِفِينَ﴾ أي: مردفين بعدد آخر[4]، والله تعالى أعلم.

---

(١) التفسير الكبير (٣/٣٥١).

(٢) انظر: التفسير الكبير (٣/٣٤٩)، وزاد المعاد (٣/١٧٨)، ومجموع الفتاوى لابن تيمية (١٥/٣٧).

(٣) انظر: التحرير والتنوير (٤/٧٥).

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢/٩٤)، ودفع إيهام الاضطراب (ص٥٣)، والتحرير والتنوير (٤/٧٣).

الخاتمة:

تبين من خلال البحث أن الله تعالى نصب دلائل عديدة لفهم الكتاب العزيز، وهذه الدلائل تتفاوت في قوتها، وقد تتعارض مع دلائل أخرى، وهذا التعارض إنما هو بحسب نظر المجتهد وفهم المفسر، وأما في نفس الأمر فلا تعارض بين الأدلة والنصوص الشرعية.

وتبين من البحث أهمية السياق في فهم معاني القرآني، لكن قد يعتريه ما يضعف دلالته بمعارضته بما هو أقوى منه، أو خفاء دلالته على المعنى، وقد سلك العلماء مسالك عديدة في دفع التعارض، وذُكر في البحث ما يتصل بالتعارض بين دلالات السياق، ومن أهمها:

الجمع بين الأقوال التي دل عليها السياق، وبذلك ينتفي التعارض، فإعمال الأقوال أولى من إهمال بعضها، والجمع بين الأقوال يزيد في توضيح معنى الآية ومدلولها، ويوحي بسعة أفق المفسر في فهم القرآن، وإن لم يمكن الجمع فالترجيح بوجه من أوجه الترجيح، وهي كثيرة ومتفاوتة، والمطلوب من المفسر العناية بأقواها وأولاها، والاعتماد حين الترجيح على الأدلة والقرائن، ومن أوجه الترجيح المتصلة بقضية البحث:

- أن يكون أحد السياقين أقرب من السياق الآخر.
- أن تكون دلالة أحد السياقين ظاهرة، ودلالة الآخر خفية.
- أن تدل مواضع عديدة في السياق على أحد المعنيين بخلاف الآخر.
- أن تعضد دلالة أحد السياقين أدلةٌ أخرى من الكتاب والسنة وغيرهما بخلاف الآخر.

ومن المهم أن يكون حاضراً لدى المفسر حين الترجيح بين المعاني أن الآيات قد تحتمل وجوهاً من المعاني؛ يكون بعضها راجحاً، وغيرها أرجح، وبعضها قوياً، وغيرها أقوى، وعليه ينبغي ألا يسارع في تضعيف وجه من وجوه معاني الآيات إلا بدليل.

وبعدُ فإن التعارض بين دلالات السياق القرآني جزئية واحدة من مباحث كثيرة متعلقة بالسياق، سواء تعلقت بالتعارض أو غيره، وهذا يؤكد أن هناك مسائل وجزئيات كثيرة تتعلق بالسياق بحاجة إلى الدراسة والتحليل والمقارنة، والله أعلم.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

المصادر والمراجع

١- آداب البحث والمناظرة، لمحمد الأمين الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية بالقاهرة، ومكتبة العلم بجدة.

٢- الإبهاج في شرح المنهاج، لعلي بن عبد الكافي السبكي وابنه عبد الوهاب، تحقيق د. شعبان إسماعيل، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ط الأولى عام ١٤٠١.

٣- الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين السيوطي، مطبعة الحلبي بمصر، ط الرابعة، عام ١٣٩٨.

٤- الإحكام في أصول الأحكام، لسيف الدين علي بن أبي علي الآمدي، تعليق عبد الرزاق عفيفي، ط الأولى عام ١٣٨٧.

٥- أحكام القرآن، لأبي بكر محمد بن عبدالله المالكي (ابن العربي)، تحقيق علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر، ط الثانية عام ١٣٨٧.

٦- إرشاد الفحول إلى تحقيق علم الأصول، لأبي عبد الله محمد بن علي الشوكاني، دار المعرفة، بيروت عام ١٣٩٩، مصورة عن طبعة الحلبي عام ١٣٥٦.

٧- أساس البلاغة، لأبي القاسم الزمخشري، دار صادر ببيروت، عام ١٣٩٩.

٨- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين الشنقيطي، أشرف على تحقيقه بكر أبو زيد، مطبوعات مجمع الفقه الإسلامي بجدة.

٩- البحر المحيط، لأبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي، تحقيق عادل عبد الموجود وعلي معوض، دار الكتب العلمية ببيروت، ط الأولى عام ١٤١٣.

١٠- البحر المحيط في أصول الفقه، لمحمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق عبد الستار أبو غدة وعبد القادر العاني، نشر وزارة الأوقاف بالكويت، ط الثانية عام ١٤١٣.

١١- بدائع الفوائد، لابن قيم الجوزية، مكتبة القاهرة، مصر، ط الثانية عام ١٣٩٢.

١٢- البرهان في علوم القرآن، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق د. يوسف بن عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة، بيروت، ط الثانية عام ١٤١٥.

١٣- التبيان في أيمان القرآن، لابن قيم الجوزية، تحقيق عبد الله البطاطي، مطبوعات مجمع الفقه الإسلامي بجدة، ودار عالم الفوائد.

١٤- تتمة أضواء البيان، عطية محمد سالم، مطبعة المدني، ط الأولى عام ١٤٠٠.

١٥- التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية بتونس، عام ١٩٨٤م.

١٦- التسهيل لعلوم التنزيل، لمحمد بن أحمد بن جزي الكلبي، تصحيح محمد هاشم، دار الكتب العلمية ببيروت، ط الأولى عام ١٤١٥.

١٧- التعريفات، لعلي بن محمد الجرجاني، تحقيق د. عبد الرحمن عميرة، عالم الكتب - بيروت، ط الأولى عام ١٤٠٧.

١٨- تفسير جزء عم، د. مساعد الطيار، دار ابن الجوزي، الدمام، ط الثامنة، ١٤٣٠.

١٩- تفسير ابن أبي حاتم، لأبي محمد عبد الرحمن بن محمد الرازي، تحقيق أسعد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز بمكة، ط الثالثة، عام ١٤٢٤.

٢٠- تفسير أبي السعود، لأبي السعود محمد بن محمد العمادي، تحقيق عبد القادر عطا، مكتبة الرياض الحديثة، ومطبعة السعادة.

٢١- تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، تحقيق عبد العزيز غنيم وآخرين، دار الشعب بالقاهرة.

٢٢- التفسير الكبير، لفخر الدين محمد بن عمر الرازي، دار إحياء التراث العربي ببيروت، ط الثالثة عام ١٤٢٠.

٢٣- تهذيب اللغة، لأبي منصور الأزهري، تحقيق عبد السلام هارون، الدار المصرية للتأليف.

٢٤- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، دار هجر بالقاهرة، ط الأولى عام ١٤٢٢.

٢٥- الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، دار الشعب بالقاهرة.

٢٦- حاشية العطار على جمع الجوامع، لحسن العطار، تصوير دار الكتب العلمية ببيروت.

٢٧- الخطأ في تفسير القرآن بالقرآن، د. محسن المطيري، رسالة دكتوراه في كلية التربية بجامعة الملك سعود، قسم الثقافة الإسلامية، عام ١٤٣١.

٢٨- الدر المصون، للسمين الحلبي، تحقيق د. أحمد الخراط، دار القلم بدمشق.

٢٩- دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب: لمحمد الأمين الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية بالقاهرة، ط الأولى عام ١٤١٧.

٣٠- دلالة السياق القرآني وأثرها في التفسير د. عبدالحكيم القاسم، رسالة ماجستير بكلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود، عام ١٤٢١.

٣١- روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، لمحمود الآلوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي ببيروت، مصورة عن الطبعة المنيرية.

٣٢- روضة الناظر وجنة المناظر، لأبي محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، تحقيق د. عبد الكريم النملة، مكتبة الرشد بالرياض، ط الثانية عام ١٤١٤.

٣٣- زاد المسير في علم التفسير، لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، المكتب الإسلامي ببيروت، ط الأولى عام ١٣٨٤.

٣٤- زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن قيم الجوزية، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة ببيروت، ط السابعة والعشرون، عام ١٤١٥

٣٥- سنن الترمذي، لمحمد بن عيسى بن سورة الترمذي، تحقيق عزت عبيد الدعاس، نشر المكتبة الإسلامية بتركيا.

٣٦- السياق القرآني وأثره في الترجيح الدلالي، عبدالفتاح محمود، رسالة ماجستير في الجامعة الأردنية، عام ١٤٢٦.

٣٧- السياق القرآني وأثره في الكشف عن المعاني، د. زيد العيص، بحث في مجلة العلوم التربوية والدراسات الإسلامية بجامعة الملك سعود، مجلد ١٥، العدد ٢، عام ١٤٢٣.

٣٨- شرح الكوكب المنير، لابن النجار محمد بن أحمد الفتوحي، تحقيق نزيه حماد ومحمد الزحيلي، مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى بمكة، عام ١٤٠٠.

٣٩- شرح مختصر الروضة، لأبي الربيع سليمان بن عبد القوي الطوفي، تحقيق د. عبد الله التركي، نشر وزارة الشؤون الإسلامية بالسعودية، الطبعة الثانية عام ١٤١٩.

٤٠- صحيح البخاري، لأبي عبد الله البخاري، المكتبة الإسلامية بتركيا، عام ١٩٧٩م.

٤١- صحيح مسلم، لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة الإسلامية بتركيا.

٤٢- ضوابط المعرفة، عبد الرحمن الميداني، دار القلم بدمشق، ط الرابعة ١٤١٤.

٤٣- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، لأبي عبد الله محمد بن علي الشوكاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، ط الثانية عام ١٣٨٣.

٤٤- القاموس المحيط، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة ببيروت، ط الثانية ١٤٠٧.

٤٥- قواعد الترجيح عند المفسرين، حسين بن علي الحربي، دار القاسم بالرياض، ط الأولى، عام ١٤١٧.

٤٦- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل، لأبي القاسم الزمخشري، تحقيق عادل عبد الموجود وعلي معوض، مكتبة العبيكان بالرياض، ط الأولى عام ١٤١٨.

٤٧- الكليات لأبي البقاء الكفوي، تحقيق عدنان درويش، مؤسسة الرسالة ببيروت، ط الثانية عام ١٤١٩.

٤٨- لسان العرب، لأبي الفضل محمد بن مكرم بن منظور، تحقيق عبد الله علي الكبير وزميليه، دار المعارف بمصر.

٤٩- مجموع الفتاوى، لأبي العباس أحمد بن تيمية، جمع عبد الرحمن بن قاسم، مجمع الملك فهد لطابعة المصحف الشريف بالمدينة، عام ١٤١٦.

٥٠- محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، تعليق محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى الحلبي بمصر، ط الأولى ١٣٧٦.

٥١- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، تحقيق الرحالة الفاروق وآخرين، نشر وزارة الأوقاف بقطر، ط الثانية عام ١٤٢٨.

٥٢- مذكرة في أصول الفقه، لمحمد الأمين الشنقيطي، المكتبة السلفية بالمدينة.

٥٣- المستدرك على الصحيحين، لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري، دار الكتاب العربي ببيروت، مصورة عن الطبعة الهندية عام ١٣٣٥.

٥٤- المستصفى من علم الأصول، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، دار إحياء التراث العربي ببيروت، مصورة عن طبعة بولاق بمصر عام ١٣٢٥.

٥٥- مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، نشر دار سحنون بتونس، الطبعة الثانية، مصورة عن الطبعة الميمنية بمصر، عام ١٣١٣.

٥٦- معالم التنزيل، لمحيي السنة الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق محمد عبد الله النمر وزميليه، نشر دار طيبة بالرياض عام ١٤٠٩.

٥٧- المعجم الوسيط، د. إبراهيم أنيس، المكتبة الإسلامية بتركيا، ط الثانية.

٥٨- مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان عدنان داوودي، دار القلم بدمشق، والدار الشامية ببيروت، ط الثانية عام ١٤١٨.

٥٩- الموافقات، لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، تحقيق أبي عبيدة مشهور آل سلمان، دار ابن القيم بالدمام، ط الأولى عام ١٤٢٤.

٦٠- النبوات، لأبي العباس أحمد بن تيمية، تحقيق عبد العزيز الطويان. أضواء السلف بالرياض، ط الأولى عام ١٤٢٠.

٦١- النشر في القراءات العشر. لأبي الخير محمد بن محمد بن الجزري، تحقيق علي الضباع، دار الكتب العلمية ببيروت.

٦٢- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لبرهان الدين البقاعي، أشرف على طباعته محمد خان، دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد بالهند، ط الأولى عام ١٣٩١.

٦٣- النكت والعيون، لأبي الحسين علي بن محمد الماوردي، مراجعة عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية ببيروت، ط الثانية عام ١٤٢٨.

٦٤- الهداية إلى بلوغ النهاية، لمكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق بإشراف الشاهد البوشيخي، نشر جامعة الشارقة بالإمارات، ط الأولى عام ١٤٢٩.

* * *